كتاب الإذاعة والتليفزيون

سلسلة كتب شهرية تصدر عن مجلة

الاذاعة والتليفزيون

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

سعيد عثمان



صلاح
عبد الصبور

قصة الضمير المصري الحديث



مقـدمة
بقلم :
صـلاح عبد الصبور

هذه سياحة فى وجدان مصر فى القرن التاسع عشر ، وبعض ماعشناه من القرن العشرين .

وهى سياحة لاتتخذ من أحداث التاريخ الا معالم لتحديد التاريخ وتلمس الخطى . فالأحداث هى حركة الواقع التى تستجيب لها حركة الفكر ، بل هى الأرض التى ينبت فيها الفكر ، وتزدهر أصوله وفروعه ، وتتضح انبثاقاته وتجلياته ، ويتألق رجاله فى حياتهم العقلية والذوقية والوجدانية .
ولاشك أن تاريخ مصر فى هذه الفترة تاريخ حافل ، متوالى الفصول ، منها الضاحك والباكى ، والمنتصر والمنكسر ، والمنطلق والمتردد والمتراجع ، فحركة التاريخ ليست واحدة الاتجاه الا فى محصلتها النهائية ، حين ننظر اليها من بعد ، أما حين نعايشها عن قرب ، فاننا كمن يشهد تلا من الأرض صاعدا الى العلاء ، ولكن فى هذا التل كثير من الفجوات والوهاد . والذين يرون التاريخ

تطورا منفصلا قد يفزعون كثيرا حين يرون بعض جوانب الصورة الداكنة ، وقد يفوتهم ان تطور التاريخ ليس حتميا كتطور الكائنات الحية كما ترسمه قوانين البيولوجيا ، بل ان وراءه الانسان صانع التاريخ ، الذى يستطيع أن يستعجل خطى هذا التطور ، أو يبطىء بها ، أو يعرقلها ويحرفها عن غاياتها فى بعض الأحيان .

وصناعة التطور هى أشق الصناعات ، وهى لاتتم قط فى غيبة عن الانسان ، الانسان كمجموع حين تتحرك نوازعه ورغباته نحو امتلاك أكثر للحياة ، واستحواذ أشمل على معطياتها ، فيحاول جهده بالتجربة والتنظيم ان يحسن من آلاته ويطورها ، وأن يزيد من ثروته وينميها ، وأن يجعل الأرض بما عليها وتحتها تستجيب لقدراته ، فكأنه يجرى حوارا منفصلا مع الطبيعة ، لغته فيه هى العقل النفعى ، والتجربة المفضلة ، والآلة المنتجة التى هى ثالثة ذراعى الانسان الحديث .

وثمة حوار آخر يجريه الانسان كفرد — لا كمجموع — مع الحياة بغية المساهمة فى صناعة التطور ، ذلك هو حوار المفكرين وأرباب التأمل ، وكما عاشت مصر أياما تاريخية حافلة فى هذه الحقبة من الزمان ، وكما تغيرت وسائل حوار الانسان مع الطبيعة فيها ، فجدت ألوان جديدة من الملكية الزراعية ، وعرفت الصناعة الى حد ما ، وقامت الطبقة الوسطى من المتملكين الزراعيين والرأسماليين الصغار وموظفى الدواوين ، كذلك جرى حوار عظيم ممتع الحلقات بين الانسان — كفرد متأمل ، وبين الواقع ، كان ابطاله هؤلاء الرجال العظماء الذين حفل بهم تاريخها الحديث ، والذين أحكى بعض مواقفهم ، لا سيرتهم — فى هذه الفصول .

وقد يحلو لى هنا أن أستجيب لتسميتى لهؤلاء الرجال بالأبطال ، وانتقل خطوة مع المصطلح الفنى ، لكى أقول ان هؤلاء

الرجال لم يكونوا أبطالا فحسب ، بل كانوا أبطالا تراجيديين أيضا، فقد نما معظمهم كما ينمو البطل التراجيدى فى ظل مقاومة كأنها القدر المعاند ، دخلوا المدارس بطريق الصدفة التى تشبه الخطأ وحلوا طلاسم الحروف باجتهاد عظيم ، وتأملوا فى شأن الحياة فى بيئة عقلية لاتعرف الا التأمل فى شأن الموت ، ونحن قد لاندهش الآن اذا رأينا أحد أبناء جيلنا وهو يعانق الافكار المقلقة المتفجرة بالحياة ، أو يحلق فى آفاق التأمل المشوق الى تحريك الواقع ، فقد صارت مصر - بدرجات متفـــاوتة بين حين وآخر - جزءا من الواقع العالمى المتفجر بالقلق الخصب الطامح الى احتمالات المستقبل وقد نشأت فى مصر مدارس من الفكر هى احيـــاء لتراث أصـــيل أو استنبات لمدارس فكرية عالمية معاصرة ، وقد نشأت فيها أيضا فنون من الأدب هى أيضا امتداد لفنونها المتوارثة أو تطعيم للشجرة المحلية بهذا النسخ الأوروبى الخلاق . أما هؤلاء الآباء والأجـــداد فقد نشأوا فى بيئة ساكنة فاترة ، وفى ظل تقاليد خمسة قرون طوال من الجمود العثمانى والمملوكى ، وفى غيبة التقاليد الفكرية الداعية الى التأمل ، والتى تربط بين الفكر والواقع .

ولاشك أن معظم هؤلاء الرجال كانوا يتمتعون بما نســميه «النزاهة الفكرية» ، وهى المقدرة على تخليص النفس من تحيزاتها وأهوائها ، ومحاولة النظـر الى الحقيقة فى قلبها وصـميمها . فالحقيقة عندئذ هى هدف يقصد لذاته ، بغض النظر عن انتماءاتنــا وميولنا . والحقيقة جوهر مضىء لاتنشغل العين عنه بالنظر الى حواشيه وهوامشه وانعكاساته . وهذه النزاهة الفكرية هى القيمة الخلقية الأولى التى يجب أن يتحلى بها أهل الفكر والتأمل . وهى التى تبرر وجودهم فى المجتمع ، وشرعيتهم فيه كنخبة يحق لهــا القيادة والتوجيه .

وقد تميل كثير من الفلسفات المعاصرة الى التقليل من شأن

((النخبة)) أو ((الصفوة)) والتهوين من دورها في المجتمعات الحديثة، بل في كل المجتمعات على السواء ، وهي تظلم كلمة ((النخبة)) حين تلحق بها أهل الثراء أو أهل السلطة . فالنخبة الحقة في كل مجتمع هي نخبة الفكر ، وهي وحدها التي تستحق تسميتها بهذا الاسم . اذ أن الانتماء الى النخبة او الصفوة ليس ميراثا او تسلطا ، ولكنه اكتساب . ولايبرر قيام النخبة الا تحليها بفضائل تفتقر اليها مجتمعاتها ، ولانعني بالفضائل هنا الفضائل التقليدية كالصدق والكرم وغيرهما ، بل نعني الفضائل التي تنتسب الى عالم القيم أكثر من انتسابها الى عالم الأخلاق ، مثل القدرة على التفكير ، والقدرة على الحسم واتخاذ المواقف ، وتنمية الاحساس بمعنى الولاء للوطن والتاريخ ، والجراة على اكتشاف حلول جديدة للمشكلات والمعضلات .

وهناك ثلاث مراحل في حياة النخبة ، أولاها النظر في الواقع الذي نشأت فيه ، واستبانة عيوبه ونواقصه ، وثانيتها الاعتزال للتأمل في هذه العيوب والنواقص ، واكتشاف سبل تجاوزها ، وثالثتها العودة الى المجتمع بهذا الاحساس الثقيل السعيد بالحمل الملقى على عواتقهم ، اذ يطمحون الى تغيير المجتمع باستعمال العقل والحوار حينا كما يفعل الفلاسفة والانبياء ، أو باستعمال القوة وتجميع خيوط السلطان حينا كما يفعل الثوار والمشرعون .

وقد كان هؤلاء الرجال الذين نبسط بعض مواقفهم هم ((النخبة)) او ((الصفوة)) في المجتمع المصري خلال حوالي قرن ونصف من الزمان . وكان لكل منهم عالماه ، عالم حياته العادية التي نشأ فيها طفلا ريفيا مصريا فقيرا ، ثم سفرته أو رحلته بعد ذلك الى القاهرة أو الى أوروبا أو الى داخل نفسه أحيانا ، لكي يخرج بعد ذلك الى عالمه الجديد ، عالم استشراف المستقبل .

وكان لكل منهم أيضا عشيرتاه ، العشـــيرة الأولى هى أهله وأبناؤه ، والعشيرة الثانية هى تلاميذه وأتباعه .. كذلك عاش رفاعة الطهطاوى وعبد الله النـديم ومحمد عبده ولطفى السـيد وقاسم أمين والعقاد وطه حسين وغيرهم .

وثمة معنى آخر يتجلى فى معظم هؤلاء الأبطال . وهو أنهم لم يقعوا فى الفـراغ الكائن بين عـالم الفكر وعالم العمـل ، فهم متفلسفون أحيانا ، ولكنهم عاملون دائما ، ولقد شاركوا فى الحياة العامة بكل حيلتهم وحولهم . بل لقد قدم بعض هـؤلاء الأبطـال ــ بسيرة حياتهم ــ حلا موفقا لهذا السؤال المعضل الذى يطرحـه الآن بعض المفكرين الاوروبيين ، وهـو امكانيـة التـوفيق بين الثقافتين .

ان فى العالم المعاصر الآن نوعين من الثقافة ، أولهما ثقـافة تكنيكية علمية ، تستمد بناءها من معطيات التجربة المباشرة ، وتلجأ فى ترتيب معلوماتهـا الى أسلوب الاحصـاء والاسـتقراء واستخراج القوانين . وهى تنظر شذرا الى ضرب آخر من الثقافة وهو الثقافة الادبية التى تستمد بناءها من معطيات الحدس الملهم، وتلجأ فى ترتيب معطياتها الى أسـلوب المقارنة والاسـتنباط واستخراج الاشراقات ، ويحلو لها بعد ذلك أن تطلق على نفسها اسم « الثقافة الانسانية » وكأنها تدافع عن عدم تجردها وتحـكم الانسان بميوله وأهوائه فى معطياتها .

ومجال الثقافة العلمية معروف، وهى قد ازدادت انحناء باللائمة على الثقافة الانسانية ، بل لقد أوشكت على احتقارها منـذ أن اهتدت الى كثير من الكشوف والاختراعات العلمية المثيرة ، بل لقد أصبح أهل الثقافة العلمية يفخرون ببعدهم عن هذا المجـال المضلل الذى تحلق فيه الثقافة الانسانية .

أما مجال الثقافة الانسانية ، فهى هـذه الخبرات والعلوم التى يتدخل فيها الذوق الانسانى كالفن بأنواعه من أدب ونحت وعمارة وموسيقى وتصوير ، وهى هذه العلوم الانسانية كالتاريخ والدين والفلسفة والتذوق الأدبى وغيرها .

هذا الصراع بين الثقافتين موضوع معاصر أثاره الأول مرة الكاتب العالم الروائى الانجليزى ((هـ٠ن٠ سنو)) فى كتاب له عنوانه ((بين ثقافتين)) مشيرا الى أن خلاص العالم لن يهل عصره الا بامتزاج الثقافتين والتوفيق بينهما ، وقد أثار الكتاب حين صدوره كثيرا من الأصداء ، وتصدى لنقده وتقييمه فى جملته ومحتوياته كثـير من الكتاب .

ولعل تاريخنا يقدم اجابة رائعة عن هذا السؤال حين يقدم سيرة رفاعة الطهطاوى الذى درس الهندسة والقانون والادب بالحماسة نفسهـا ، وحين يقدم سيرة على مبارك الأديب صاحب الرسائل والمؤرخ صاحب ((الخطط التوفيقية)) والمهندس الأول للقناطر الخيرية .

أترانا نستطيع أن نقول ان هـذه الفترة من حيـاتنا كانت ميلادنا الجديد ، أو « الرينسانس » الذى عرفته أوروبا فى قرونها الثلاثة ، منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر ، وهو الميلاد الذى أفسـح المجـال لعصر العقـل والعلم لنتأمل فى واقع الصورة فى أواخر القرن الثامن عشر بمصر وفى واقعهـا الآن ، لندرك مكانة هذا العصر من تاريخنا .

وبعد ...

فليس هذا الكتاب دراسة أكاديمية ، وما أردت أن يكون ، ولو أردت ما استطعت ، فلن يستطيع العاشـق أن يسـبر روح

حبيبته بالمسبار أو يزنها بالميزان وما مصر الا معشوقتنا الأولى ، وما نحن جميعا الا عشاقها وخدامها الصغار الذين نطمح الى أن نقوم بشرف العشق وفرض المحبة ·

ونحن الآن نحس جميعا بالشوق العظيم الى الحديث عن مصر ، والسياحة فى أيامها الحافلة ، ولعلى أذكر الآن زيارتى لأحد بلدان أوروبا بعد النكسة بشهور ، وهذا الشاعر الذى التقيت به فى أحد المؤتمرات هناك ، حين بادرنى بالسؤال :

ـ اذن أنت مصرى ·· كيف حال مصر ؟

وأجبته :

ـ حالها متى يا سيدى ؟ حالها الآن أم منذ سبعة آلاف سنة ·· ان هذه اللحظة المريرة هى مجرد دقيقة من أيام تاريخها الأزلى ·· دقيقة من الألم العميق ، تستأنف بعدها ابتسامتها الخالدة ··

ـ نعم ·· لا شك أنكم قد تغلبتم على كثير من الصعوبات ، ولكن ماذا ستفعلون الآن ؟

ـ أتعرف قصة العنقاء ·· هذا الطائر الخرافى الذى يحترق فى النار كل حقبة من الزمان ، ثم لا يلبث أن يعود من جديد بريشه الزاهى وعنقه الاصيد المائل ·

ـ ما أشد تفاؤلكم ؟

ـ لأننا رأينا كثيرا ، وعرفنا كثيرا ، حين تموت وتحيا مئة مرة فى التاريخ ، تعرف أن الموت عارض وأن الحياة هى الحق · أنت لا تدرك هذا لأنك لا تستطيع أن تنظر فى تاريخ بلادك الى أعمق من مائتى سنة ، وبعدها قد ترى القراصنة العراة · أما أنا ، فلدى

فرصة باهرة ، اننى أستطيع أن أتجول فى تاريخى الى عشرين ألفا من جدودى ، فأجد أحدهم يهندس الهرم الأكبر ، وأحدهم يفتح الجمجمة فيداعب جراحها بأصابعه الحساسة ، ثم يعيد تسوية الشعر فى تواضع حبيب ، وثالثهم ينشد أغانيه الرقيقة وتأملاته العذبة ...

والآن ،

يا مصر العظيمة

تحية لسرك المتجدد العظيم

تحية لرجالك العظماء

تحية لمستقبلك البازغ رغم الغياهب ، والذى أحاول فى هذا الكتاب أن أستثيره وأستعجل اشراقته ، بأن أعرض صورة من ماضيك الحافل .

(صلاح عبد الصبور)

اليقظة



- اللقاء المؤلم بين الفرسان والمدفعية
- الكلاب تركب الخيول ووراءها الخدم
- حسين شلبى عجوه .. أول مخترع مصرى

وكما يحدث فى الحواديت ، أراد علماء أوروبا ان يكشفوا لعلماء مصر عن تقدمهم وذكائهم .. فدعوهم الى زيارة المجمع العلمى ، ثم أخذوا يعرضون عليهم فنونا من ابداعهم .. صب أحدهم سائلا أبيض ، ثم ألقى فيه ببعض السائل الاخضر . فصار - وياللعجب - أحمر ، ثم أخذ هذا السائل فوضعه على النار فصار حجرا ، ودق هذا الحجر بمطرقة فى يده ، فسمعت لهطرقعة هائلة ودوى عظيم ، وارتجف علماء مصر ، فلما استردوا وعيهم لم يملكوا الا أن يهرشوا ذقونهم ، ويستعيذوا بالله من شر السحر والسحرة .

كان مكان هذه الحكاية ، حى السيدة زينب ، فى عام ١٩٠٠ من الميلاد ، فى قصر يقوم الآن بحارة تدعى حارة «مونج» تيمنا باسم رئيس أحد الفريقين المتنافسين ، أما الفريقان فقد كان أولهما ... الفريق صاحب البدائع والحيل ، هو فريق علماء الحملة الفرنسية الذى اصطحبهم نابليون بونابرت معه الى مصر ، اما الفريق الثانى فقد كان فريق «علماء» مصر وأهل الرأى فيها .

أما الذى حكى لنا الحكاية ، فهو مؤرخ مصر فى ذلك الاوان . الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتى ، أول السلسلة العظيمة من أذكياء المصريين فى عصرنا الحديث .

وقد نقرأ الآن هذه الحكاية ونبتسم ، عارفين أن الخدعة كانت صغيرة وصبيانية ، وأنها لا تزيد عن استغلال بعض بديهيات الكيمياء ، وقد نفكر قليلا فى الماضى ونتأمله ، فنذكر أن كيميائيى الغرب منذ ألف سنة كانوا يعرفون أضعاف هذه الحيل ، وان جابر ابن حيان وتلاميذه .. قد اكتشفوا كثيرا من العناصر وركبوا آلاف المركبات ، وأن صناعة الصيدلة - وهى احدى الصناعات القائمة على الكيمياء - كانت من مفاخر الذهن العربى .

ولكننا قد نفكر فى اتجاه آخر ، فنقرن هذه الحادثة بأمثالها مما وقع ، حين تمت هذه المواجهة الهائلة الدامية، بين مصر واوروبا فى العامين الاخيرين من القرن الثامن عشر . التقى الجيشان .. جيش المماليك المصرلية ــ كما كان يدعوهم الجبرتى .. أو أولاد الذوات كما كان يدعوهم بعض المصريين ــ وجيش الفرنسيس ، كان جيش المماليك انيقا رشيقا ، يلبس أحدهم قميصا من القطن الناعم الابيض فوقه ثوب من القماش الهندى الخفيف ، وفوقه قفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الاصابع ، ثم « كرك » بأكمام قصيرة ، وحول رقبته فراء من السمور ، وفوق ذلك كله طيلسان يلف به جسمه جميعه . وفى يده سيفه وفى وسطه خنجره، ورووا أن مقبض الخنجر الذى كان يحمله أحدهم ، كان يقدر بمائتى ألف جنيه » .

هذا الجيش من الفرسان .. كان يواجه جيشا آخر من المدفعية : ملابسه متواضعة ، وحركته خفيفة ، وزاده قليل ، حتى ان شيخنا الجبرتى يحدثنا بلهجة مليئة بالعجب عن أن نابليون حين أراد الخروج الى بلبيس للاستكشاف ، لم يصطحب معه طباخا .. بل لف دجاجتين فى كيس ، وانطلق فى طريقه مع ياوره .

وحين التقى الجيشان ، قال قائل المماليك : مالهؤلاء الفرنجة المخنثين والقتال ؟ سنمزقهم بسيوفنا ، وقال قائل الفرنسيس : ما لهذا الجيش يخرج الى القتال كأنه يدعى الى وليمة ؟ سنمزقهم بمدافعنا . وهزمت المدافع السيوف ؟

هؤلاء هم العلماء والحكام ، فأين أبناء البلد .

لننتقل خطوة ثانية مع الجبرتى لنراه يقول لنا : ان محمد على بعد عشر سنوات من خروج الفرنسيين ، أراد أن يحفظ سجلات للضرائب ، فوضع نظاما يقضى بأن تكتب باللغة العبرية ، لأن معظم كتابها كانوا من اليهود .. وهم الذين يجيدون الحساب والتدوين .

هذه هى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر .. لا مجال هنا للحديث عن التقدم أو التخلف ، لنقل انهـا أمة كانت نائمـة واستيقظت على هدير المدافع وانهمار القنابل ، حتى الازهر الشريف لم يعفه الفرنسيون من طلقاتهم حين اعتصم به العامة والعلماء ، الذين « **حين وقع عليهم القنبر ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، صاحوا : يا سلام .. من هـذه الآلام ، يا خفى الألطاف ، نجنا مما نخاف** » والرواية هنا .. للجبرتى رحمه الله ..

ولنقل انها أمة كانت قد لفت خيوط شرنقتها البالية حول نفسها ، قانعة برزقها يأتيها رغدا أو غير رغد ، مستسلمة الى تيار الأقدار الساكن ، طغمة حاكمة من المماليك ، وأعوان لهم فى جمع المال من أبناء الطوائف المختلفة ، ومجموعة من العلماء تدرس الفقه والأصول ؛ وفلاحون يعملون كثيرا ويأكلون قليلا ؛ ولا يتعلمون أبدا ..

كانت الصورة مؤلمة حقا ، وقد فطن اليها طائفتان من الناس، أو لنقل «طائفة ورجل» ..

* * *

« الرجل » ..

ولنبدأ بالرجل :

كانت أقصى رتبة وصل اليها فى جيش الاتراك ، وهو البانى جبلى ، هى رتبة « سرششمة » أى قائد ألف ، وكانت مهمته هى حفظ أقوات الجيش ومؤونته ، وكان المقرر أن يخرج من مصر كما خرج بقية الجيش ، ولكنه داور وناور حتى استطاع البقاء والاستيلاء على السلطة ، لانه أيقن أن الثمرة ناضجة لمن يستطيع أن يقطفها،

وانه يستطيع ان يجعل من مصر عاصمة ملك كبير له ولذريته من بعده .

وكان «محمد على» من أكثر الناس وعيا للدرس الذى ألقته الحملة الفرنسية على مصر ، ولكن بطريقته الخاصة .. طريقة الجندي العثمانلى ، الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، والحاكم المطلق الارادة والتصرف ، الذى يضع كل شيء فى خدمة أغراضه الحربية والسياسية .

ولنعد للجبرتى .. نراه يحدثنا عن غضب الجند العثمانيين والمماليك ، حين أرادهم محمد على أن يلبسوا «الملابس المقمطة» التى كان يلبسها الفرنسيون . وذلك حين أراد تنظيم جيشه على النظام الاوروبى .

ولكن هذه النزعة الاوروبية .. كانت عوراء تنظر بعين واحدة . لم يدرك محمد على من أوروبا الا صناعتها الحربية ، أما حضارتها وفنونها وحقوق محكوميها على حكامها ، فلم تكن تخطر له ببال ، كان محمد على آية زمانه فى الظلم والقسوة والتعذيب ، والجشع الى المال .. كما كان حاكما مطلقا الى حد لم يعرفه العصر الحديث ، فقد كان «نابليون» الابن العاق للثورة الفرنسية ، قد أنشأ ديوانا من المصريين لمناقشة المسائل العامة ، ورغم أن هذا الديوان كان نوعا من الزينة أو «الاكسسوار» الا أن «محمد على» كان يستطيع أن يمضى به ويدعمه ، ويدع المصريين يمارسون من خلاله لونا من الديمقراطية الساذجة ، ولكنه — على عكس ذلك — لم يحاول بعثه ، ولم يقرب اليه أحدا من المصريين ، ولم يشركهم فى جهاز حكمه ..

ولتقرأ قائمة ببعض الرجال الذين عهد اليهم محمد على المسئوليات العامة ، فلن تجد فيها مصريا واحدا .. كان وزراء تجارته على التوالى «باغوص بك» أو «يوسف كنعان» الارمنيين :

وكان مدير جماركه «كرابيت» الارمنى وكان سلحداره سليمان آغا، وكان خازنداره «محمود بك» التركيين وكان دفتر داره «محمد بك» صهره ، وكان ولاته جميعا على الاقاليم ، من الاتراك ..

ويصف الجبرتى هؤلاء الحكام الجدد بقوله :

«ترأسوا ، وعلت أسافلهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات .. وأخذوا بيوت الأعيان - التى بمصر القديمة - وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وجناين ، وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة ، ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة .. يطردون الناس من امامه وخلفه ..

ولانريد هنا أن نبالغ فى تهوين شأن محمد على . فقد كان على أى حال حاكما شرقيا تقليديا ، ولكنه نشر مناخا من اليقظة والتفتح ربما لم يكن هو شخصيا مدركا لابعاده ، وذلك حينما أراد أن يجعل من مصر ضيعة هو مالكها وصاحبها الوحيد ، فكان مثل صاحب الضيعة الحريص يريد أن يجعلها تؤتى أحسن الثمرات ، فيستخل كل الوسائل فى سبيل تنمية انتاجها .

وثمة شىء آخر أدركه محمد على ، وهو أن التفوق الحربى لا يتاح الا بمعرفة علوم الحرب ، ومن هنا أقدم على الخطوة الثورية العظيمة فى تاريخ مصر ، وهى ارسال بضعة من الشباب الى اوروبا . ومن الحق ان معظم هذه البعثات كانت للتخصص فى أمور الحرب ، هندستها ومعداتها وطبوغرافيتها ، ولكن العلم لا يتجزأ ، والتفتح العقلى لا يمكن توجيهه ، والاستفادة لا تحجزها الاسوار .

لنقل اذن .. عن «محمد على» كما قال شيخنا الجبرتى :

« فلو وفقه الله لشىء من العدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة .. لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » .

ولنضف الى حديث الجبرتى .. أن محمد على بهذه الخصال التى أفسدها ظلمه .. قد صنع هذا المناخ الذى أنبت الفريق الثانى ممن هزتهم المواجهة بين مصر وأوربا ، أو بالأحرى ، الذى نما فيه هذا الفريق وازدهر ، حتى امتد أثره خلال قرن ونصف قرن من الزمان صانعا مصر الحديثة ، خالقا لتقدمها وتطورها ، مثيرا لعقلها ووجدانها ، مغيرا لذوقها ومشربها . متطلعا الى بناء مصر الحديثة الاصيلة .

الشيخ العطار

هذا الفريق الذى يبدأ بالشيخ حسن العطار ورفاعة الطهطاوى، وينتهى بكل من يكتب حرفا صادقا فى هذا البلد ، صحفيا كان أو أديبا أو عالما أو مفكرا ، ويمتد الى ما شاء الله لهذه الامة أن تعيش، هذا الفريق هو شرف مصر وعنفوانها ، وشارة تجددها ومصاولتها لمصائر الزمان ، وعن هذا الفريق نتحدث ..

يبدأ هذا الفريق بداية متواضعة ، فى بيئة علماء الازهر الشريف تارة ، وبين أبناء مصر العاديين تارة أخرى . ثم يصل الى بداية نضجه حين يعود طلبة البعثات الى ديارهم ، ليتحدثوا عما رأوا ، ويكتبوا ما شاهدوا . ولسان حالهم يقول : من كان له أذنان للسمع فليسمع .. هذه أوربا وهؤلاء نحن ، فانظروا أى وجهة تبتغون . حتى لاتنخدعوا كما انخدع آباؤكم بخدعة السائل الابيض حين يحمر أو يخضر أو يفرقع .

أما فى بيئة الأزهر الشريف ، فحق علينا أن نبدأ بهذا العقل المستنير فى تاريخ مصر الحديثة .. الشيخ حسن العطار ، تلميذ الجبرتى وصديقه ، واستاذ رفاعة الطهطاوى وصديقه أيضا ، وشيخ الأزهر حقبة من أيام محمد على .

فوجىء العطار ، الازهرى الشاب ، بمجىء الحملة الفرنسية،

فخاف وفر فيمن فر من العلماء الى الشام ، فلما هدأت الامور .. عاد الى مصر ، واتصل بهم وخالطهم وأحب كثيرا من عاداتهم ووسائل حياتهم ، والتقط بعض ألفاظ لغتهم ، وتردد كثيرا على مجمعهم العلمى بل وتغزل ببناتهم السافرات .

كان يقول ــ كما يحدثنا على مبارك فى خططه التوفيقية ــ **«ان بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ، وكان يتعجب مما وصلت اليه تلك الامة الفرنساوية من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة »**

وفى هذه العبارة الأخيرة .. فطنة لمنهج التعليم الحديث من حيث تبويب الكتب ، وسهولة الأسلوب والعرض ..

ومن الحق أن «العطار» لم يحاول فى أثناء مشيخته للازهر أن يبث فيه بعضا من الروح العلمى الحديث كما فعل «محمد عبده» حين تولى الافتاء ، ولكنه اكتفى بأن ينير ذاته وعقله بفضوله الذهنى اليقظ وتطلعه الى ادراك المعارف العصرية ، ثم أخيرا بأثره فى تلميذه العظيم رفاعة رافع الطهطاوى ، ألمع ذهن مصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ومن حقه أن نفرد له موضوع حديثنا القادم .

أما بين أبناء مصر العاديين ، فلنذكر أن هذا النشاط اليقظ، وهذا المناخ الفوار ــ الذى أتاحه حكم محمد على ــ قد انعكس على عامة المصريين ، فلابد أنهم حين فوجئوا بالمعامل والمصانع والمدارس والمستوصفات .. أحسوا أن ثمة شيئا جديدا يحدث ، ولابد أن ذوى الملكات منهم قد طمحوا الى أن يتاح لهم انماء ملكاتهم ، ولنقرأ قصة أول مخترع مصرى من فم الجبرتى مؤرخنا العظيم .

أول مخترع مصرى

كان اسـم أول مخترع مصرى ((حسين شـلبى عجوة)) اذ علم محمد على أن مصريا من « أولاد البلد » قد اخترع آلة لضرب الارز وتبييضه لا تحتاج الى جهد كبير ، فطلبه اليه ، وأعطاه مالا وأمره بأن يسير الى دمياط ليقيم فيها مصنعا تستخدم فيه هذه الآلة التى اخترعها ، وأمر بأن يسلم اليه مايحتاجه من الاخشاب والحديد وأدوات البناء ، فلما أقام المخترع حسين عجوة المصنع ، ونجحت آلته .. أمره باقامة مصنع آخر فى رشيد ، وأنعم عليه بمال مكافأة له ..

وهكذا بدأت مصر تمضى فى طريق الحداثة والمعـاصرة ، وتنتقل خطوة فخطوة من ظلام القرون الوسطى الى سـاحة العصر الحديث . من الحق أن الظروف الاقتصادية والسياسية التى مرت بها مصر ، قد أثرت أثرا بالغا فى تحديد خطى هذا الطريق ومجالاته، ولكن التيار الاغلب ، بلاشك . كان هو تيار الاستنارة الذهنيـة والعقلية والوجدانية ، الذى قاد مصر فيه أدباؤها ومفـكروها وعلماؤها وفنانوها .. وعن معالم هذا الطريق نتحدث حديثنا المتعدد الحلقات ، مثيرين القضايا الكبرى فى تاريخ الوجدان المصرى مثل قضـية الانتماء بين نزعاتها الفرعونية السلفية والعربية المعاصرة، ومثل قضـية الفكر المصرى بين السلفية والتغريب ، وغير ذلك من القضايا الحيوية التى اصطرخ عندها الراى ، واشتد فيها الجدل، **حتى اهتدت مصر الى صورتها المحدثة .. كدولة مسلمة عربية عصرية ترجو أن تمضى خطاها على طريق الحضارة والتقدم .**

ومن خلال هذه القضايا .. سيبرز دور الاسماء المنيرة فى هذا التاريخ الزاهر . رفاعة الطهطاوى والافغانى ومحمد عبده ولطفى السيد . وغيرهم .. سلسلة ذهبية ، أقباس يأخذ بعضها من نور بعض ..



المندهش الأعظم



- الفلاحون صنعوا معجزة القناطر الخيرية!
- هل الحجر الصحى حرام أم حــــلال ؟
- نقل العلوم البرانيــة الى أرض مصر !

- ١ -

الدهشـــة هى ينبوع كل فكر عميق · لان الدهشـــة تقلق النفس الساكنة الفاترة ، وتبعث فيها دوامة التساؤل · واذا بدأ الانسان بسؤال قاده السؤال الى المعرفة · وبالمعرفة يعرف الانسان مكانه على أرض الحياة والواقع ، ويقيسه الى مكان غيره من البشر ، وقد يطمح بعد ذلك الى تغييره أو تحسينه ، فلا شك أن الغـــاية الرئيسية للمعرفة هى المقدرة على تغيير العالم ، والسعى الى ذلك المقصد ، الذى هو مبرر وجود الانسان على الأرض ·

وهناك نوعان من أدوات الاستفهام ، أولهما فاتر ساكن ، مهمته — حين يتلقى الاجابة — هى تسجيل الظواهر والرضا عن الكائن والموجود ، والآخر متحرك مهمته البحث عن الوسيلة والغاية. نحن قد نرى آلة حديثة كالعقل الالكترونى مثلا ، فنســـأل : متى اخترعت ، **وأين** كان ذلك الاختراع ، والكلمتان «متى» و «أين» عندئذ كلمتان فاترتان ساكنتان ، ولكننا لو سألنا .. **كيف** وصل اليناالعقل البشرى ، **ولماذا أنشأها** . فقد حركنامعرفتنا أو تحركنا بها خطوة نحو المجهول ، وحاولنا أن نجوس فى أرجائه لعلنا نجـد فيها موضعا لأقدامنا المترددة ، أو لعقلنا الخجول ·

وقد كان العقل العربى فى عصـور التخلف قائما بالأسـئلة السـاكنة ، التى لا تعبر عن الدهشــــة ، ولكنهـا ترضى بمجرد التســجيل · وحين عرفنا الأسئلة المحركة المتحركة اســتطعنا أن نتلمس سر العقل الحديث · وأن نستنشق هواء العصر الحديث ·

والمندهش الأول فى تاريخ الوجدان المصرى هو رفاعة الطهطاوى بلا شك ، ولد فى نفس العام الذى خرجت فيه فلول الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١ ، فى احدى مدن صعيد مصر الصغيرة ، من أسرة تمت بصلة عميقة الى السلف الصالح ، فأبوه من نسل الرسول ،

وأخواله من نسل الأنصار . ونحن نعرف فى أرض مصر هذا الاعتزاز بالأنساب الطاهرة ، وكيف ينعكس على أصحابه زهوا أحيانا .. وخلقا كريما أحيانا أخرى ، ولكنه ينتج فى غالب الأحيان ـ وبخاصة فى ذلك الزمان ـ لونا من الكرامة يدل به أصحابه أو يتسامون به الى مناظرة الأرستقراطية التركية والمملوكية المستجلبة الى مصر . وفى ظل هذا النسب الكريم والفقر الطارىء ، ولد رفاعة الطهطاوى ، وقد تكون علة هذا الفقر الطارىء هى نقل «محمد على» لملكية الأرض الزراعية الى الدولة ، حين ألغى نظام الالتزام ليقيم مكانه نظام الاحتكار ، اذ نزع محمد على الأرض الزراعية التى كانت تحت أيدى الملتزمين ، والتى كان الفلاحون يزرعونها ويدفعون ضريبتها لهم واعتبرها ملكا للحكومة ، وكان معظم هؤلاء الملتزمين من عمد البلاد ومشايخها وأعيانها . فانتقل الكثيرون من حال اليسر الى حال الفقر والاملاق .

وتنقل أبو رفاعة برفاعة بين أقاربه وأخواله ، وهو يحفظ القرآن ، ويقرأ العلوم السلفية على مشايخ منطقته ، ثم هجر الصعيد إلى القاهرة فى أسبوعين ، وفى الأزهر التقى بالشيخ حسن العطار ، الذى علمه علوم الأزهر ، وأيقظ ذهنه الى محاولة اكتساب المعارف العصرية ، التى كان الشيخ الكبير مولعا بها ، حتى انه ألف كتابا فى الطب ، وكان يقرأ بعض الكتب فى الفلك والجغرافيا .

وبعد خمس سنين من مجاورة الفتى الصعيدى فى الأزهر جلس الى أحد أعمدته ليعلم ويحاضر ، وكانت أمه قد باعت فى هذه السنين بعض حليها وعقارها ، لتضمن له خبز الأزهر وعدسه وفوله ، وهو الطعام الذى حدثنا عنه «طه حسين» فى كتابه «الأيام» بعد قرن من الزمان ، وأوجز فى العبارة حين قال : « وويل للأزهريين من خبز الأزهر » .

ويذكر لنا تلميذ رفاعة ومؤرخ سيرته « صالح مجدى » أحد أقطاب المترجمين فى القرن التاسع عشر ، ان رفاعة كان يستعين

على أمور حياته حينئذ باعطاء بعض الدروس الخصوصية لحسين بك طبوز أوغلى أحد أولاد الذوات ، كما كان يلقى بعض الدروس فى مدرسة أخرى أنشأها «محمد بك لاظ أوغلى» لتعليم أولاد المماليك.

وبعد سنين قليلة .. تحول رفاعة الطهطاوى من سلك الأزهر الى السلك «الجهادى» ، اذ عين واعظا واماما بالجيش ، وفى عام ١٨٢٦ ، وعمر رفاعة خمس وعشرون سنة ، وافت محمد على فكرته الثورية ، حين خطر له أن يرسل بعض الشباب الى أوروبا ليتلقوا العلم فى باريس ، وأراد أن يختار للبعثة اماما وواعظا ، فطلب من الشيخ حسن العطار أن يرشح له أحد علماء الأزهر .. فاختار الشيخ تلميذه رفاعة ، وأوصاه بأن يسجل مايراه فى هذه الرحلة فى كتاب . ولم يكن من مهام الامام أو الواعظ أن يدرس أو يتعلم ، بل أن يؤدى بأعضاء البعثة شرائع الدين ، وقد سافر مع رفاعة ثلاثة آخرون من الأئمة ، فلم يعن أحد منهم بأن يتعلم الفرنسية أو يقرأ علوم الفرنسيين .

بعثات محمد على :

كان تركيب بعثات محمد على مختلطا ، لا تركيا أو شركسيا خالصا ، كما يحلو لبعض المؤرخين أن يزعموا ، كان فيها بعض أبناء المماليك المشترين، ممن كان يشتريهم الوالى ، ثم يسلمهم الى «حسن أفندى الدرويش» فى القلعة ، ثم الى «روح الدين أفندى» ليتولى الاشراف على خلقهم وتصرفاتهم ، وكان فيها أيضا بعض النابهين من الشباب المصريين ، كان فيها محمد أفندى بيومى من دهشور وأحمد دقلة بك من بسيون غربية ، وأحمد طائل أفندى من بلتان قليوبية مركز طوخ ، وأحمد بك السبكى من سبك التلات ، وحسن بك نور الدين من سنهور غربية ، ومحمد على البقلى باشا الجراح العظيم من زاوية البقلى بالمنوفية ، وابراهيم بك النبراوى من نبروه غربية ، وحماد عبد العاطى باشا من أبو تيج ، وعبد الله بك

السيد من الفيوم ، وآخرون وآخرون من شباب مصر وأبناء طينها وترابها . فليذكر المؤرخون ، الذين يحاولون المغالاة فى الاساءة الى محمد على ، بتصوير اختياره لأعضاء البعثات مقصورا على أبناء الترك والمماليك ، أنهم يسيئون أيضا الى مصر كما يسيئون الى الحقيقة ، فقد أصبح هؤلاء الشباب بعد عودتهم هم صناع اليقظة المصرية الحديثة وأعلام تاريخها الفكرى والعملى ، وليس من اللائق فى حقنا أن نزعم أنهم كانوا جميعا من غير أبناء البلاد ، وليكف هؤلاء المؤرخون عن هذا الاجتهاد الضار ، وليذكروا رياسة «كلوت بك» ، وهم الذين أنشأوا القناطر الخيرية ــ معجزة الرى فى ذلك الزمان ــ تحت اشراف المهندس الفرنسى «موجيل» ، وأن واحدا منهم هو «على باشا مبارك» من قرية تدعى (برمبال) هو أبو التعليم فى مصر بعد رفاعة .

عود الى رفاعة :

وأبحر رفاعة مع البعثة الى باريس ، وركب السفينة الحربية « لاترويت » من الاسكندرية ، ومن ذلك الحين أصابته الدهشة ، لقد أصابته دهشة متواصلة لمدة ست سنوات ، هى سنوات رحلته واقامته فى فرنسا ، وسجل يوميات دهشته فى كتابه العظيم «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» .

بدأت دهشته لنظافة السفينة ونظافة الفرنسيس بوجه عام مع أن النظافة من الايمان ، وليس عندهم منه مثقال ذرة ... كما قال ، وزادت دهشته اذ حجزوا فوج المسافرين فى الحجر الصحى أو « الكرنتينة » حين نزلوا مرسيليا ، ووقف ليتساءل على عادته الفقهية : هل الكرنتينة حرام أو حلال .. وأورد حجج من قالوا بتحريمها حين أفتوا بأنها هروب من القضاء ، ولا يهرب من قضاء الله الا كافر ، وقال آخرون انها حلال . ولم يورد رفاعة حجتهم ، ثم استبدت به الدهشة حين رأى مكان الحجر الصحى نظيفا مليئا

بالرياض والحياض ، ولكن الحيرة الشديدة كانت حين أمروا لهم بالطعام ، ولنترك رفاعة المندهش العظيم يحدثنا بعبارته ، فيقول :

.. ولم نشعر في أول يوم الا وقد حضر لنا أمور غريبة في غالبها ، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية ، لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسي للجلوس عليها ، لان هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض فضلا عن الجلوس بالأرض ، ثم مدوا السفرة للفطور ، ثم جاءوا بطبليات عالية ، ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز ، وسكينا وشوكة ومعلقة ، وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء ، واناء به ملح وآخر به فلفل ، ثم رصوا حوالي الطبلية كراسي ، لكل واحد كرسي ، ثم جاءوا بالطبيخ ، فوضعوا في كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع ، فيعطي لكل انسان في صحنه شيئا يقطعه بالسكين التي قدامه ، ثم يوصله الى فمه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره أو سكينته، أو يشرب من قدحه أبدا ، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة » .

ويمضي رفاعة الطهطاوي ليدخل احد المقاهي المنتشرة في مارسيليا ، فيجده تحفة رائعة في أناقته ومراياه «**وهو ليس مجمعا للحرافيش ، بل هو مجمع لأرباب الحشمة ، والقهوجية (صاحبة القهوة) جالسة على صفة عظيمة** » ، وفوجيء بالجالسين يمسكون أوراقا في أيديهم عرف أنها أوراق الوقائع اليومية أو الصحف .

ثم كانت باريس ..

وفي باريس .. التقى رفاعة الطهطاوي بكثير من المفاجآت ، لعل أول ماذكره منها هو عربة الرش «**فان أهل باريس مثلا ، سهل**

عندهم رش ميدان متسع من الأرض وقت الحر ، فانهم يصنعون دنا عظيما ذا عجلات ، ويمشون العجل بالخيل ، ولهذا الدن عدة بزابيز مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلاتزال العجلات ماشية ، والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة ، لا يمكن رشها بجملة رجال فى أبلغ من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل ، فمصرنا أولى بذلك لشدة حرها » .

وتذكرنا عبارته الاخيرة .. بعبارة لاحقة يقولها عن ميادين باريس أو فسحاتها كما يسميها ، حين يقول : وفى هذه المدينة عدة فسحات عظيمةتسمى المواضع، يعنى الميادين ، كفسحة «الرميلة» بالقاهرة ، فى مجرد الاتساع ، **لا فى الوساخة** .. ولنضع خطين تحت تعليقه الأخير ، فسوف نلتقى بكثير من أمثاله فى مجال المقارنة بين مصر فى أوائل القرن التاسع عشر وفرنسا فى الوقت نفســه والأوان نفسه ، ولنذكر أن رفاعة كلما مضى صفحات فى كتابه ، قلت لهجة الحديث عن التحريم والتحليل ، لتبدأ لهجة الحديث عن الفائدة والجدوى .

لنسمعه يقول : « **ان من العوائد العظيمة للفرنسيس انتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فان الموسر يغير فى الأسـبوع عدة مرات وبهــذا يستعينون على قطع عرق الواغش ، فلذلك كان لاأثر للقمل ونحوه الا عند من اشتد بهم الفقر** » ولنذكر عندئذ أنه ربما كان يعرض بمن لا يغيرون ملابسهم الا اذا اهترأت على أجسامهم .

التيــاتر :

ورأى الشيخ رفاعة المسارح فى باريس ، وحدثنــا عنها حديثا شــائقا :

« فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى (التياترو » (بكسر التاء المشددة وسكون التاء الثانية) والسبكتاكل وهى يلعب فيها تقليد سائر ماوقع ، وفى الحقيقة ..أن هذه الأعمال هى جد فى صورة هزل .. فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة ، وذلك لانه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى وذم الثانية ، حتى أن الفرنساوية يقولون : انها تؤدب أخلاق الانسان وتهذبها ، فهى وان كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها من المبكيات ... وصور هذه التياترات أنها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة ، وفيها عدة أدوار كل دور له أود (غرف) موضوعة حول القبة من داخله ، وفى جانب من البيت مقعد متسع (يقصد الخشبة) .. وتحت هذا المقعد محل للآلاتية .. ثم ان النساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم فى مصر .. واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم ، وفصاحة ، وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الأدبية والأشعار : وبالجملة .. فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل» .

وفى باريس ..راى رفاعة الى جانب المسارح دور الاستعراض ومسارح الأطفال والقبة السماوية التى أطلق عليها « أورانورامه » وأطل على باريس ليشهد (البانورمه) أو البانوراما ، وشهد حفلات الرقص والغناء « ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص فى مصر .. فانه من خصوصيات النساء لانه لتهييج الشهوات ، واما فى باريس فانه نمط مخصوص لايشم منه رائحة العهر أبدا . وكل انسان يعزم امرأة يرقص معها فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة التالية . وهكذا .. سواء أكان يعرفها أم لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن .. » .

فعل الخير :

وينهى رفاعة نزهته فى أنحاء باريس ، فيحدثنا عن حدائقها وقصورها ، ويجول فى الشانزليزيه والبلوار ، والحمامات والمغاطس، والقصور والمنازل المزينة بأرق ألوان الفن والذوق ، وقصور الملوك التى تتحول الى متاحف يوما فى الأسبوع فيؤذن للناس أن يطوفوا بها ، ثم عن دور الكتب العامة التى تحتوى احداها على أربعمائة ألف كتاب ، والتى وجد فيها مبلغا عظيما من الكتب العربية التى يندر وجودها بمصر أو بغيرها ، كما وجد فيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا . ومنها دار كتب أخرى أو خزانة كما يسميها رفاعة فيها مائتا ألف مجلد ، ثم انتقل الى المتاحف أو خزائن المستغربات كما يسميها ، فحدثنا عن متاحف النبات والمعادن والفنون ، وبعد جولته فى المتاحف حدثنا عن مرصد باريس أو **((المرصد السلطانى))** ثم « **الأكدمات** » أو الأكاديميات خاصا بالذكر الأكاديمية الفرنسية التى تتكون من أربعين عضوا ، والتى تهتم بتأليف القواميس الفرنسية .

وكانت وقفة رفاعة الطهطاوى المتأنية ، عند الصحف والصحافة .. استوقفته هذه الصحف ، حين دخل المقهى فى مارسيليا لأول مرة ، فرأى عددا كبيرا من الجالسين، وقد مد كل منهم أمامه صفحات من الورق المطبوع ، ثم ما لبث أن رأى الفرنسيين لا يستغنون عن مثيلات هذه الأوراق ، وأدمن مطالعتها فوجد فيها كثيرا من الفوائد الشاردة .

« ومن الأشياء التى يستفيد منهـا الانسان كثيرا من الفوائـد الشاردة .. التذاكر اليومية المسماة بالجرنالات ، جمع ((جرنال)) وهو يجمع فى اللغة الفرنسية على « جرنو » وهى ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ما وصل اليهم علمه فى ذلك اليوم ، وتنشر فى المدينة وتباع لسائر الناس .. وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر المقاهى ، وهذه « الجرنالات » .. مأذون فيها

ـ لسائر أهل فرنسا ـ أن تقول مايخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسـنا أو قبيحا ، وأن تقول رأيهـا فى تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ، ما لم تضر بذلك .. فانه يحكم عليها ، وتطلب بين يدى القاضى» .

موقفان :

وتنتهى سياحة رفاعة الطهطاوى فى باريس بعد ست سنوات ليعود الى مصر ، وقد حاولنا هنا الالمام بجانبها الذى اكتسبه ببصره ورؤيته ، اما جانبها الذى اكتسبه ببصيرته وعقله ، فله حديثنـا اللاحق .. حيث نحاول أن نتتبع ماااكتسب من الثقافة والمعرفة ، وما درس من العلوم والفنون ، وما اشتعل به قلبه من الرغبة فى الاصلاحات الدستورية والتشريعية والعلمية ، حتى اذا نزل الى أرض الوطن جعل همه أن ينقل بلاده من القرون الوسطى الى العصر الحديث ، وأن يؤلف كتبا ، ويؤلف الى جانبها رجالا وتلامذة ، يهبهم من علمه وذكائه ودأبه ، ويوقظ فيهم روح التوق الى المعرفة .

ان بين الجبرتى والطهطاوى بضع عشرات من السنين ، ولكن ما أكثر ما اختلفت لهجتاهما فى الحديث عن علوم الغرب ، أمـا الجبرتى فقد قال حين شاهد حيل الكيميـاء : «ولهم (أى للفرنسيس) فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة تنتج عنها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا) .

ولكن رفاعة الطهطاوى قال :

وانطقتها (أى كتبه) بحث ديار الاسلام على البحث فى العلوم البرانية والفنون والصنائع . فان كمال ذلك ببلاد الافرنج ثابت شائع .

انه الفرق بين العقل الذى اندهش فظل ثابتـا فى مكانه .

والعقل الذى اندهش فتحرك وحاول أن يحرك سواه من العقول ، ولنتوقف قليلا عند تعبيره « العلوم البرانية » فقد فطن هذا الرائد العظيم الى أن هناك نوعين من العلوم ، علوما جوانية تعنى بالروح الانسانية ، كعلوم الدين والفقه .. وعلوما أخرى لم تكن تعرفهامصر تعنى بتجربة الانسان وحياته على الأرض ، وتيسر له أموره ومسعاه ، وتنظم له مسيرته وخطاه .. هذه العلوم من هندسة وكيمياء ومساحة وفلك وطب وصيدلة ، هى ما حاول رفاعة العظيم — الشاعر الناثر الأزهرى النشأة — أن يستنبته فى تربة مصر الكريمة المعطاء .

— ٢ —

لم يعش الشيخ الصعيدى فى باريس مفتوح العينين فحسب ، بل عاش متفتح القلب والوجدان كذلك ، ولم يقنع بأن تحمله قدماه الى مسارحها ومقاهيها وحدائقها وطرقاتها ، بل لقد حمله طموحه الى لب ثقافتها وعلمها وفكرها . ولقد خلف لنا رفاعة الطهطاوى قائمة بما قرأ فى باريس من كتب ، فاذا بها تنتقل به فى دائرة العلوم التطبيقية والانسانية من الهندسة من طرف حتى ميثولوجيا الاغريق فى طرف آخر ، واذا بثلاثة أسماء تبرز فى أفق هذه الثقافة ، هى أسماء الحكماء الثلاثة ، الذين كانوا حتى ذلك الوقت ، هم ضمير أوربا ومبعث تيارات فكرها السياسى والفلسفى . هذه الأسماء الثلاثة .. هى أسماء مونتسكيو ، وفولتير ، وجان جاك روسو .

كان هؤلاء الثلاثة .. هم الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس فى القرن الثامن عشر ، أو عصر العقل الأوروبى ، وهم الذين مهدوا للثورة الفرنسية التى أرست حقوق الرعية على الراعى ، ونصبت العقل معبودا تقدم له القرابين وتقام له الشعائر ، وهم الذين انبعث من تراثهم فكر الثوار الرومانتيكيين فى الفترة التى عاشها رفاعة سواء فى مجال السياسة ، أو الأدب ، أو الإصلاح الاجتماعى

الدينى ، وكأن هذا الشيخ الصعيدى كان يحلق فى الآفاق نفسها التى يحلق فيها المثقف الأوروبى لذلك الزمان .

أما «مونتسكيو» فقد وهب اوروبا نظرية سيادة القانون ،حين روج لمبدأ الفصل بين السلطات فى معرض حماسه للنظم الانجليزية ومحاولته استنباتها فى القارة الأوروبية .. التى لم تكن تعرف عندئذ الا الملكيات المطلقة ، التى يندرج الناس تحت طاعتها بمقتضى الحق الالهى ، والتى تجتمع فيها السلطات فى يد الحكم المستبد المطلق عادلا كان أو طائشا . فاذا بمونتسكيو يتحدث عن السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ومجال عمل كل منها وحدوده ، واذا بهذا الفصل هو الملمح الرئيسى فى كل الدساتير المحدثة فى ظل الديمقراطية البرلمانية ، ثم هو المطمح الرئيسى لكل أمة هبت تطالب بدستور يعطى لكل ذى حق حقه ، ويفصل فيما قد ينشب بين الأمة وحكامها من نزاع ..

وألهم « فولتير » أوروبا الا حجة ولا حكم الا للعقل ، واننا سواسية ازاء ما يصدره من أحكام أو يراه من رأى ، وان علينا أن نهتك حجب الأوهام السائدة ، بحيث لا تخضع ارادتنا أو تصرفاتنا للأفكار الجاهزة ، أو التقاليد المسيطرة ، التى تزداد نفوذا كلما ازداد عقلنا ضعفا وتهالكا عن التفكير الواقعى فيما يدور حولنا من أمور وأحداث .

أما ثالث الحكماء .. فقد دفع الى ساحة الفكر السياسى بنظريته فى العقد الاجتماعى ، اذ أعلن أن الحكم ليس حقا للملوك والعاهلين وأتباعهم ، ولكنه تعاقد غير مكتوب بين الحكام والمحكومين على أن يرعى الحكام مصالح المحكومين لكى ينهض المجتمع ويتقدم ركب الحياة البشرية . فاذا كان الأمر كذلك .. ففى وسع أى طرف من المتعاقدين أن « يسحب امضاءه » والحكام لن يسحبوا امضاءهم بالطبع . أما المحكومون فعليهم باليقظة الدائمة ، الى أن الحكام

يراعون شروط التعاقد ويوفون بالتزاماته ، والا حق لهم أن يفسخوا هذا التعاقد الحر بين الطرفين ، فاذا كانت أفكار مونتسكيو تقود الى الملكية المقيدة فقد كانت أفكار روسو تقود الى الجمهورية الانتخابية .

لفحت هذه الرياح الساخنة عقل رفاعة الطهطاوى ، ولعلها ألهبته الهابا شديدا ، وليس بعسير علينا أن نتصور مواطننا الشيخ ابن الخمسة والعشرين عاما ، وهو يقضى أيامه فى باريس ، يقرأ الجغرافيا والتاريخ والفلك والهندسة فى ضوء مصباحه الشاحب، حتى تضعف احدى عينيه ، ويقتنى الكتب حتى تستهلك ماخصص لها من مال ثم تعدو على مال طعامه وشئون حياته ، ويترجم اثنتى عشرة رسالة أو كتيبا ليتقدم بها الى لجنة امتحانه بعد أن ضم الى البعثة التعليمية حين اتضح ذكاؤه وتفوقه . كل ذلك كان وفاء بحق من أرسلوه وانفقوا عليه ، أما هوى نفسه وقرة عينه ، فهو التأمل فى هذه الكتابات الثورية الاصلاحية ، وهو الى ذلك يقرأ الجورنالات والغازيتات أو الصحف والمجلات لكى يستشف من خلالها أنباء هذه المعركة الفكرية المشتعلة فى فرنسا بين انصار الملكية المطلقة وأنصار الملكية المقيدة . حتى تحولت هذه المعركة الفكرية الى ثورة فعلية فى عام ١٨٣٠ ، فتابعها رفاعة الطهطاوى ملء القلب بالعطف والتفهم .

فقد خرج «شارل العاشر» ملك فرنسا عندئذ عن الأصول الدستورية .. ففرض الرقابة على الصحف ، وحل مجلس النواب قبل أوانه ، وعين حكاما من العسكريين الذين يوالونه ، فتنبأ الناس بالثورة ، واحتجبت الصحف ، وأعلن الاضراب العام ، ووزعت المنشورات ، وطارد الشرطة رجال الرأى ، فتداعى الناس الى اللقاء عند القصر الملكي ، ونشبت المعارك بين الشرطة والشعب، وسلب المواطنون الشرطة سلاحهم ، وانتهت الأمور الى غايتها

بعزل الملك وتولية « الدوق دورليان » ملكا بشروط ارتضاها ارتضتها الرعيـــة .

ولنقرأ لمواطننا العظيم ، يحكى لنا قصة هذه الأيام الباهرة فى لهجته المليئة بالتعاطف ، فيقول :

« ظهر الغم على وجوه النـــاس (اثر فرض الرقابة وحل المجلس) ، وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور « الغازيتات » أى « الصحف » التى من عادتها أنها لا تفتر عن الظهور الا الأمر مهم ، فأغلقت الورشات والمعامل والفبريقات والمدارس ، فظهر بعض غازيتات الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج عن طاعته ، ومعددة لمساويه وفرقت على الناس من غير مقابل ، فلما سمع بذلك رجال الحسبة «الشرطة» حضروا فى المحال العامة ، ومنعوا الناس من قراءة هذه الغازيتات ، وخاصروا مطابعها ، وهموا بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها .. فكتب أرباب هذه الغازيتات يعنى رؤساء الفرنساوية الذين يكتبون فيها « المثقفون وأهل الرأى بتعبير عصرنا » ورقة انكار « منشورات » وأشهروها وعددوا نســخها ولصقوها بجدران المدينة ، وأمروا فيها الرعية بالحرب ، وعينوامحله ، وكان الميعاد فىدرب سراية بالرويال « القصر الملكى » ، فازدحم فيه كثير من الأمم .. فنظم القتال وكان أكثر المقتول والمجروح من الرعية ، فاشتد غضبهم وعرضوا القتلى فى المحال العامة ، فما مررت بهذا الوقت بحارة الا سمعت « السلاح ! السلاح ! أدام الله الشرطة « أى الدستور » وقطع دابر الملك ! » .

ويمضى رفاعة الطهطاوى فى حكايته ، حتى يصل الى خلع الملك فيعلق على ذلك الحديث قائلا :

فلو أنعم فى اعطاءالحرية لأمة بهذه الصفة، لما وقع فى مثلهذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه فى هذه المحنة الأخيرة ، لا سيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها وصارت عندهم من الصفات النفسية » .

(*) الشرطة ، بفتح الشين ، تعريب لكلمة «شارت» أى عهد أو دستور .

أما لماذا عهد الفرنسيون هذه الحرية وألفوها ، فلأنهم كانوا أسبق الشعوب الى الثورة فى عام ١٧٨٩ — أو الفتنة الأولى للحرية .. كما يسميها رفاعة ، ولان فى بلادهم قانونا مكتوبا يوضح حق الحاكم والمحكوم ، ويتراضى عليه الفريقان ، وهو الدستور الذى احتار رفاعة فى ترجمة اسمه .. فلم يجد الا كلمة الشرطة «بفتح الشين» ترجمة لكلمة « شارت » الفرنسية أو « كارتا » اللاتينية ، التى تعنى العهد والتعهد ، وكانت كلمة الشرط أو الشرطة أقرب الكلمات لهذا المعنى .

وقد بلغ من ولع رفاعة بهذا الدستور ، أو الشرطة ، أن ترجم فصوله الرئيسية كاملة ، رغم عنائه البالغ فى ايجاد مصطلح عربى يعادل المصطلحات الفرنسية : ولنستطرد لنقول : ان رفاعة كان أول من فطن الى صعوبة ترجمة المصطلحات وضرورتها فى وقت واحد ، سواء فى مجال العلوم الانسانية .. كالتاريخ والسياسة والفن ، أو العلوم التطبيقية كالهندسة والرياضة والكيمياء ، وانه عرض على «ابراهيم باشا» أن يقوم بعمل قاموس للمصطلحات الحديثة ، ولكنه مالبث أن أدرك — على حد قوله — أن هذا الأمر يحتاج لعشرة رجال . فأوصى عندئذ تلاميذه فى الترجمة بأن يلحقوا بكل كتاب يترجمونه ، كشفا بالمصطلحات الواردة فيه يذكرون فيه الكلمة الأجنبية ومعناها بالعربية ، ولنذكر اننا الى الآن لم نعد قاموسا للمصطلحات العلمية الحديثة !!

وجد رفاعة الدستور الفرنسى ينص على مجلسين : مجلس للأعيان ، ومجلس للنواب ، فسمى الأول «شمبر دوبير» باسمه نفسه ، ثم عربه الى «ديوان أهل المشورة الأولى» ، أما مجلس النواب فسماه « ديوان رسل العمالات » أى « مندوبو الأقاليم » ، وسمى

الناخبين باللكتور ، وسمى لجان المجلس بالبورو .. أى البيرو ، وسمى المحلفين فى النظام القضائى بالجورية ، فقد كانت كل هذه الكلمات غريبة على المناخ الشرقى العثمانى الذى عاشت فيه مصر خمسة قرون قبل حكم محمد على ، اذ كانت الأمور تدار من الآستانة اذا اتصلت بالمستويات العليا من الحكم ، فاذا شارفت مصالح الناس اليومية تركت للاجتهاد الضار للوالى والمماليك المحليين ، صغارهم وكبارهم . أما «محمد على» فقد كان حاكما مطلقا مستبدا لاتزيد مكانته — فى داخل نطاق الامبراطورية العثمانية ، وفى سلم وظائفها العليا — عن مكانة أحد وزرائها ، ويعد نظريا .. خاضعا للصدر الأعظم أو رئيس وزراء الدولة فى الآستانة . أما فعليا .. فقد كان بيده بمصر كل الأمر والنهى والسلطة والتصريف .

وقد كان الدستور أو « الشرطة » هو النص الوحيد الذى عنى رفاعة الطهطاوى بترجمته وادراجه بين فصول كتابه « تخليص الابريز» ، بل لقد ترجم التعديل الذى أجرى فيه — بعد خلع شارل العاشر وتولية دون دورليان الذى توج باسم لويس فيليب — مقارنا بين النصين ..وكان النص الأول هو دستور فرنسا عام ١٨١٨ الذى أصدره لويس الثامن عشر ، وكان التعديل هو تعديل ١٨٣١ ، وكأن رفاعة يتنبأ بالمعركة الدستورية التى دارت فى مصر بين دستور ١٩٢٤ ، الذى افتتح به العهد الدستورى فى مصر بعد تصريح ٢٨ فبراير ، ودستور ١٩٣٠ الرجعى الذى أصدره «صدقى باشا» اثر توليه الحكم منوطا به تصفية الحركة الوطنية المصرية . بل كأنه يدعو المصريين الى أن يهبوا بعد أعوام فى أواخر عهد «اسماعيل» ثم فى عهد «توفيق» للمطالبة بالدستور ، حتى تكون وقفة عرابى أمام قصر عابدين ، فيكون الدستور أحد مطالبه .

الوعى الاجتماعى :

ولعلنا نجد بداية للتحليل السياسى فى حديث رفاعة الطهطاوى

عن أسباب ثورة ١٨٣٠ فى فرنسا ، .. بداية للتحليل السياسى العلمى ، الذى يذكرنابتحليلات الصحفيين الناضجين ،حين يدخلون القوى الاجتماعية المختلفة في حسابهم ، فلنسمعه يقول :

واعلم ان هذه الطائفة « الفرنسيين » متفرقة فى الرأى الى فرقتين أصيلتين ، وهما الملكية والحرية ، « بمعنى الليبراليون أو الراديكاليون » والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء ، والأخرى تميل الى الحرية بمعنى انهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين فقط ، والملك انما هو منفذ للأحكام على طبق ما فى القوانين فكأنه عبارة عن آلة ، ولا شك ان الرأيين متباينان ، فلذلك كان لا اتحاد بين أهل فرنسا لفقد الاتفاق فى الرأى ، والملكية أكثرهم من القسوس واتبـــاعهم ، وأكثر الحريين من الفــلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية . فالفــرقة الأولى تحــاول اعانة الملك ، والأخرى ضعفه واعانة الرعية . ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم للرعية بالكلية .. ولا حاجة الى ملك أصلا ، ولكن لما كانت الرعية لاتصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب ان توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية» .

ها نحن اذن أمام ثلاثة أنواع متصــارعة من الحـكم ، هى : الملكية المطلقة ، والملكية المقيدة ، والجمهورية « التى ترد لأول مرة بهذا المعنى فى اللغة العربية » ، وها نحن أمام تحليل اجتمـاعى للقوى المؤيدة لكل من هذه الاتجاهات . وهانحن نلمح أثر «جان جاك روسو» فى قوله «الرعية لاتصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم » وكأننا نلمح الاشارة إلى انتخاب الحاكم انتخابا حرا من بين المحكومين .. ولكن ليست العبرة فى كل هذا .. بل ان العبرة فيما يورده رفاعة الطهطاوى بعد ذلك حين يستطرد قائلا :

«وشريعة الاسلام ـ التى عليها مدار الحكومة الاسلامية ـ مشوبة بالأنواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها» .

ان الجمهورية اذن ـ فى رأى رفاعة ـ ليست بدعا فى الاسلام ولا غريبة عنه ، والخطورة هنا هى فى اطلاق هذا القول فى ظل سيطرة الخلافة العثمانية فى الآستانة .. التى كانت تتوسل بالدين لاقرار سلطانها ، فتروج لنظرية الخلافة وكونها من شرائع الدين ، مع طمس الرأى القائل ان الخليفة ينبغى أن يكون قرشيا هاشميا ، لان خلفاء المسلمين كانوا أتراكا عثمانلية .

ولنحمد لرفاعة العظيم .. جرأته وشجاعته ، حين نذكر المعركة التى ثارت بعد ذلك بمائة عام : حين نشر الشيخ «على عبد الرازق» كتابه «الاسلام وأصول الحكم» ، ونفى فيه كون الخلافة ركنا من أركان الاسلام ، فوقعت الواقعة ، وبطش الملك فؤاد بأقرب أعوانه اليه ، وهم الأحرار الدستوريون ، أو العدليون كما كانوا يسمون ، أو أصحاب المصالح الحقيقية والأعيان كما كانوا يسمون أنفسهم .. لان الشيخ على عبد الرازق كان ينتسب اليهم .

ويظل رفاعة ولوعا بالتحليل السياسى حتى آخر أيامه .. احدى عينيه على مايحدث فى العالم ، والأخرى على وطنه . وتراه وهو فى الثامنة والستين ـ بعد أن تقدم به العمر ، وأنضجته التجربة ـ يعود لموضوعه الأثير فى كتابه العظيم الثانى « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » . وهو كتاب فى التربية الوطنية والقومية ، فهو اذن .. جامع لخطرات فى السياسة والاقتصاد والأدب والدين والفكر بوجه عام .

كان رفاعة الطهطاوى .. هو أول من أرسى فكرة «الوطن» والوطنية خلال حياته العلمية والتعليمية . فقد كان العرب الأقدمون يستعملون كلمة « الوطن » بمعنى البيت والمنزل ، وحين يقول الشاعر ابن الرومى :

ولى وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

فهو لا يعنى بذلك بغداد أو العراق ولكنه يعنى بيته الخاص الذى أراد بعضهم شراءه ، ولكن رفاعة يستعمل الوطن بمعنى «مصر» والوطنية بمعنى الاخلاص لمصر ، وقد نضجت عنده فكرة الوطنيــة المصرية بحيث زالت متناقضاتها الســــطحية ، فلا ضير أن نحب الفراعنــة وتاريخهم ونفخر بأبوتهم لنــا ، ونحب فى الوقت ذاته العرب ولغتهم ودينهم .. ونعتز بأبوتهم لنا .

ورفاعة الشاعر ..هو صاحب كثير من الأناشيد الوطنية التى كانت تتغنى بمصر ، والتى كنا نسمعها بمدارسنا الى عهد قريب . وهى بلاشك أفضل من سخافات موظفى وزارة التربية والتعليم التى تملأ كتب المطالعة الآن ..

ولكن الظاهرة الواضحة فى كتاب «مناهج الألباب» هى فطنة رفاعة لما يسمى الآن بعلم الاقتصاد السياسى ، وهو العلم الذى شغل أوروبا فى القرن التاسع عشر ، والذى قاد ثورتها الاجتماعية بعد أن قادت الفلسفة ثورتها السياسية . ونحن لذلك لا نشك فى أن رفاعة كان دائب الصلة بفكر باريس وهو فى القاهرة ، ولا نشك فى أنه قد قرأ ما كانت تحفل به صحفها من مناقشــات وآراء ، ولا نشك انه تتبع أخبار ثورتها الثالثة أو « كوميونة باريس » وانه ان لم يكن قد قرأ ماركس .. فقد قرأ عديدا من المفكرين الآخرين، مثل ، سان سيمون وفورييه وغيرهما ..

كان الخلاف حادا حول نظرية القيمة ، أو منبع الغنى والثروة ، أهو الملكيةأم العمل .ومن هذا الخلاف نشأت نظرية «فائضالقيمة» لماركس . وقد أدلى رفاعة برأيه فى هذا الخلاف قائلا :

« ثم اختلف .. هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الأرض ، وانما الشغل مجرد آلة وواسطة لا قيمة له الا بتطبيقه على الفلاحة ، أو ان الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الأموال المستفادة ، وانه هو الأصل الأولى للملة والأمة .. بمعنى أن الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج ما يحتاجون اليه لمنفعتهم من الأرض أو لراحة المعيشة » .

هذه هى القضية فى أجلى بيان .. أما رأى رفاعة ، فهو أن العمل القيمة الرئيسية ، وهو يذهب بهذا الرأى خطوة أبعد ، فيطبقه مصر التى كان الاقطاع قد بدأ ينشأ فيها بتأثير هدايا محمد على خلفائه ، الى اتباعهم وكبار موظفيهم وأبناء الأسرة ونسائها ، وبتأثير بدء ملكية الفلاحين للأرض منذ أن أصدر «سعيد» لائحته المشهورة فى عام ١٨٥٤ التى أباحت ملكية الأرض للفلاحين ، فاستأثر بالأنصبة الكبرى فيها مفتشو الدوائر ومأمورو الدخولية والصيارفة .

انه يقول بعبارة واضحة : ان الملاك يسرقون جهد الفلاحين وعملهم ، وان ما يضعونه من رأس مال لا يبرر أن يحظوا بالناتج كله .. فلا يتركوا للفلاحين الا الفتات القليل ان سمحت مكارمهم .

«ثم ان المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية ، المجتنى ـد هذه الاصلاحيات الفلاحية الناتجة فى الغالب عن العمل .. ـو طائفة الملاك .. حتى لايكاد يكون لغيرهم شيء من محصولها ـع ، فلايعطون للأهالى الا بقدر الخدمة والعمل ، على حسب ـسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة» .

ولننظر هذه الكلمة .. التى تذكرنا بتحليل الاقتصاديين المحدثين لظاهرة الاحتكار ونتائجها :

«فيترتب على هذا .. أن كل من يريد من الأهالى أن يتعيش من الخدمة التى هى العمل . يصير مضطرا لأن يخدم بالمقدار الذى يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضائهم ، ولو كان هذا القدر يسيرا

لا يساوى العمل ، لا سيما اذا وجد بالجهة كثير من الشغالين ، فانهم يتناقصون فى الأجر ويتنافسون فى ذلك لمصلحة صاحب الأرض » .

وينتهى رفاعة بأن يحكم بأنه لا يجوز أن يستأثر أصحاب الأرض بناتجها ، فهى دون الفلاح لن تعطى شيئا ، ويتهم حجج الاقطاع بأنها ليست الا مغالطة .. ويؤكد أن قانون العرض والطلب حين يتعرض للأجور قانون باطل مجحف ، وان صاحب الحق الأول فى ناتج الأرض هو الفلاح الذى زرعها ، لا المالك الذى احتواها وامتلكها .

من هو لنا :

ان رفاعة الطهطاوى لشخصية عملية وفكرية أكبر من أن يحاط بها فى بضعة أحاديث ، وقد توخينا فى هذا المجال .. أن نلم بالقضايا الكبرى التى أثارها ، ولو أردنا أن نحدد مكانه فى الفكر المصرى الحديث لقلنا انه يمثل بالنسبة لنا ديدرو وفولتير وروسو ومونتسكيو مجتمعين ، وأنه يتجاوزهم ـ بالنسبة لنا ـ بدوره العملى فى انشاء مدرسة الألسن ، وتوجيه خطاها ، وفى خلق خمسين مترجما أو يزيد ، وفى توجيه خطى الصحافة المصرية الناشئة فى الوقائع وروضة المدارس .

كما أنه هو الأب الفكرى لكل اتجاه اصلاحى وتقدمى عرفته مصر ، فهو السلف الصالح لكل خلف صالح .. السلف الصالح لمعلمى هذه الأمة الكبار مثل : على مبارك ومحمد عبده وطه حسين ، ولثورييها العظماء مثل : عرابى وعبد الله النديم وسعد زغلول ، ولصحفييها النابهين وأدبائها المبدعين .

فى عام ١٨٧٣ مات رفاعة الطهطاوى بعد رحلة حياة طويلة ، كانت كالشجرة المثمرة الطيبة ، أصلها ثابت ، وفروعها تمتد على سماء الوطن العظيم .



الثائر المتنقل



- عشرة جنيهات مرتب جمال الدين الأفغاني
- الأفغاني يهاجم فولتير وروسو !
- التاريخ القديم لكلمة الغزو الثقافي !

- ١ -

فى أحد أيام مارس عام ١٨٧١ ، بعد أن افتتحت قناة السويس بعامين ، وانحسرت أو كادت الموجة الذهبية لايام اسماعيل ، هذ الموجة التى لمعت على وجهها لآلىء الزبد ، وحفلت أيامها بالافرا والليالى الملاح ، حتى بلغت مداها ، فانحسرت لتخلف وراءها أموا الدين الفادح والهم الثقيل ، ولتأخذ معها اسماعيل الى منفاه الطويل المرير .

فى احد هذه الايام .. نزل الى مصر شاب فى الثانية والثلاثي من عمره ، متوسط الطول ، قمحى اللون ، كثير التدخين فى عصبي ظاهرة ، لايحمل حقائب أو متاعا .. لأن ملابسه كلها على جسمه وكتبه كلها في صدره .

كان هذا الرجل .. قد ولد فى أقصى بلاد العجم ، فى بلا الافغان ، لاسرة عالية النسب والمكانة ، أما علو نسبها .. فلانها تنسب الى الحسين بن على ، وأما علو المكانة فلانها كانت تحكم أحد أقال البلاد ، وتشارك فى مؤامرات السياسة العليا ، فيكون الامر عند كما يحدث لمثيلاتها من الاسر ، يوم لها ويوم عليها ، وفى أحد الاي — التى دارت فيها الدائرة على الاسرة — تضطر الاسرة لهجرة موطن الى العاصمة ، وهناك يشارك ابنها النابغة فى ادارة الامور حتى يصب وزيرا لأحد الأمراء ، ويسقط ذلك الامير ، فيهجر الشاب البلاد ا الهند ، وهناك يوطن له مكانة بين علمائها ومفكريها ، ثم لايلب أن يضيق ذرعا بالنفوذ الانجليزى هناك ، فيفكر فى مهجر جديد فلا يخطر بباله الا مصر ..

كانت مصر عندئذ .. هى مهوى قلب العالم العربى الاسلامى، منذ أن دفع بها محمد على الى مصاولة الخلافة العثمانية فى حروب الشام والاناضول . فقرعت الايدى المصرية أبواب استنبول، وكادت أن تلج ساحاتها ، لولا أن تدخلت أوروبا فزعا من القوة المصرية الناشئة .. فأجبرت محمد على على الرضا بالقليل ، والقناعة بأن تكون ولاية مصر له ولذريته من بعده..

وكانت سنوات الانحسار المريرة فى ختام أيام محمد على ، الذى أبى القدر الا أن يفارق حياته وقد فارقه عقله . فكأنه كان ينقذه من أن يجيل النظر فى مصيره المؤلم ، اذ يقارن بين سلطانه الذى كان ممدودا «ذات يوم» على مصر والسودان والحجاز ونجد والشام ، وبين هذا الملك الضيق الذى قنع به .

ولكن هناك جذوة لم تخمد بعد أن خمدت جذوة الحروب ، تلك هى جذوة التطلع العقلى والحضارى الذى مهد له محمد على السبيل والذى حمل شعلته المضيئة عديد من المصريين ، كان رائدهم هو رفاعة الطهطاوى . ومن الحق .. أن حكم عباس الاول وسعيد كان حكما يقوم على القاعدة المخادعة التى يتبناها بعض الولاة ، وهى أن الشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم ، ومن الحق أيضا أن الروح العربية المصرية ــ التى كانت تجد سبيلها فى رفق أيام محمد على ، وكان ابنه ابراهيم كثيرا ما يتكىء عليها ويستثيرها وبخاصة فى أيام حروبه مع العثمانيين ــ هذه الروح كانت تلقى ألوانا من العنت والاضطهاد فى أيام عباس وسعيد ، وبخاصة فى أيام أولهما ، حتى ان من كان يتكلم باللغة العربية من طلبة المدارس الحربية ــ فى أيام عباس الاول ــ كانت توضع فى فمه العقلة التى توضع فى فم الحمار حينما يشرع حلاق الحمير فى قص شعره ، ويبقى كذلك نهارا كاملا عقوبة له .

ولكن عهود عباس وسعيد تقضت غير مأسوف عليها ، وجاءت الايام الحافلة لاسماعيل ، أيام العظمة الرائعة والهوان العظيم ، أيام المجد المتألق والانكسار المرير . فقد كان شعار اسماعيل هو : أريد أن أجعل مصر قطعة من أوروبا .. وفى سبيل هـذا الشعار نقل أوروبا الى مصر ، ولـكنه لم ينقل مصر الى أوروبا ، وأتت أوروبا بمغامريها وسفلتها وأوغادها ودائنيها .. حتى تم لاوروبا احتلال مصر فى عهد توفيق المتخبط فى شباك الاضطراب الذى خلفه أبوه.

ولكن اسماعيل كان مثل جده.. يريدملكا عصريا ، وهذاالملك العصرى لا يتوطد الا بالتعليم ، وهكذا ازدهر التعليم مرة ثانية فى هذا العهد ، وقد يكون محمد على واسماعيل لم يفكرا فى أن انتشار التعليم سـلاح ذو حدين ، فهو كما يوفر للحاكم فئة من الموظفين العموميين وكتبةالدواوين ومهندسى المصانع.. الا أنه يثير فىالناس جذوة المعرفة التي لا تخمد ، والتى تدفعهم الى الفـكر والمقارنة ، والتأمل فى الماضى ،والنظر الىالمستقبل ..لقد أوفدمحمد علىرفاعة الطهطاوى الى فرنسا ليؤم البعثة . ثم ليدرس العلوم العسكرية . فعاد وهو يتحدث فى الدستور وحقوق المحكومين على الحكام ، ودخل «البارودى» المدرسة العسكرية فى أيام عباس ، فخرج منها شاعرا ثائرا بالعربية التي كانوا يمنعون الحديث بها ، وسافر «على مبارك» ليدرس الهندسة العسكرية ، وعاد لينشىء عديدا من المدارس ، وليكون أديبا وشاعرا ومشتغلا بالعلوم الانسانية . ان التفتح العقلى لا يحـده حد ، ولا يوقفه الا حدود العقل ذاته . فاذا ظن الحكام الاغبياء .. انهم يستطيعون بالتعليم ، أن يخـرجوا أجيـالا من البيروقراطيين والتكنوقراطيين فحسب ، دون أن يشتغل هؤلاء الخريجون بهذا الولع المحرق بالمثل العليا ، والمصالح الوطنية ، فهمواهمون غافلون . فان الحـاكم ، اذا أشبع الفضـول العقلى بالتعليم ، فقد أيقظ الفضول الروحى الى الحرية .

الافغـــانى

.. ومصر

ولنعد الى الرجل القادم .. لنعرف كيف كانت مصر حينما قدمها ، ولنقل أولا ان الرجل لم يأت الى مصر الا لانها كانت كعبة الثوار والمتمردين من أبناء العرب والاسلام .. فقد نزلها من قبله « أحمـد فارس الشـدياق » ثائرا على التعصب الدينى . وأديب اسحاق ثائرا على الاستعمار والجهل ، ونزلها من بعده «الكواكبى» هزبا من بطش ولاة العثمانيين ، وبحثا عن منـاخ صـالح لأفكاره وآرائه .

وهكذا .. جاء جمال الدين الأفغـانى الى مصر ، وهـو يعرف قصده . ويدرك أنه سيلقى فى هذه البلاد عقولا متفتحة تتجاوب مع عقله المتفتح ، ونفوسا متطلعـة تسـتجيب لنفسه المتطلعـة ، ولذلك .. فنحن لا نتفق كثيرا مع قول الشـيخ « محمد عبده » ان جمال الدين الأفغانى هو الذى بث بذور الروح الوطنية فى مصر، وهو الذى أيقظ الرغبة فى الدستور ، فذلك لون من التقدير باعثة الولاء الكبير من التلميذ لاستاذه ، ومن المريد لشيخه .

فحين جاء الافغانى الى مصر .. حاولت السلطة استمالته اليها ، اذ فرض له « رياض باشا » مرتبـا قدره عشرة جنيهات ، وهو مبلغ كبير فى ذلك الزمان ، فكأنها كانت محاولة من — رئيس النظارة — لشراء لسان لاجىء سياسى معروف بحدة اللسان على الظلم والظالمين ، ولكن هذا اللاجىء السياسى .. كان يعرف أن لسانه هو عدته وسـلاحه ، وان مكانه ليس هو أروقة الحـكام ودهالين السلاطين ، بل الهـواء الطلق حيث تنطلق الكلمـات كالرصاص .

اتخذ اللاجىء السياسى له مجلسين : أحدهما فى بيته حيث يلقى بضعة دروس فى الفلسفة ، وثانيهما فى قهوة متاتيـا حيث

يلقى بضعة دروس فى الثورة ، والتفت حوله فى المجلسين الطليعة الفكرية المثقفة فى مصر .

كان من بين هذه الطليعة .. هذه الأسماء اللامعة فى تاريخ مصر : محمد عبده ، وسعد زغلول ، وابراهيم المويلحى ، ومحمود سامى البارودى ، ويعقوب صنوع ، وأديب اسحق ، وسليم نقاش، وكان لكل من هؤلاء مجلسه الذى يجتمع فيه خلصاؤه ، وأحباؤه من المثقفين ، فالرواة يحدثوننا أن مجلس البارودى كان يجتمع فيه عبد الله النديم وعبد الله فكرى والشاعران على أبو النصر ومحمود صفوت الساعاتى وغيرهم ، كما يحدثنا الدكتور أحمد أمين ـ نقلا عن عبد العزيز فهمى ـ انه كان يتردد على مجلس على باشا مبارك، فيجد فيه لفيفا من المثقفين من شباب مصر . وقد ظل مجلس على باشا مبارك عامرا ، حتى حضره الزعيم مصطفى كامل وهو طالب شاب ، فلم يضق به رب المجلس ، بل قربه واستدناه اليه .

وقد جاء جمال الدين الافغانى الى مصر وهو يحمل بضعة أفكار ، وغادرها وقد أضاف الى فكره أفكارا جديدة .. واتضحت فى نفسه أفكاره الأولى فأصبحت أكثر عمقا ورسوخا وثراء . وكان ذلك كله ثمرة للقائه مع المفكرين المصريين أولا ، ومع الواقع المصرى خلال الأعوام الثمانية التى عاشها فى مصر بعد ذلك .

لقد أعطى الافغانى مصر ، وأعطته مصر .

كان الأفغانى حينما جاء الى مصر، لم يحرر أو يكتب الا رسالة الرد على الدهريين ، وقد كتبها بالفارسية وهو ببلاد الهند . وترجمها الشيخ « محمد عبده » فيما بعد الى العربية بمعونة أحد الفرس المقيمين بمصر ، والدهريون الذين رد عليهم الافغانى هم أولئك الشبان المسلمون الهنود .. الذين قرأوا شيئا من العلم الحديث ، فوجدوا فيه نظريات النشوء والارتقاء على اختلاف نتائجها ، وبخاصة نظرية « داروين » الذى كتب كتابه « أصل

الأنواع » فى عام ١٨٥٩ ، فهز به وجدان المتدينين فى كل مكان .

وسأل سائل .. جمال الدين الافغانى عن رأيه فى مذهب الطبيعيين هذا ، هل هو موافق للدين أو مخالف له .. وتصدى جمال الدين للرد فى رسالة طويلة ، استعرض فيها تاريخ الامم وتاريخ الفكر ، مبينا أن الامم المتعاقبة « كالاغريق والفرس والمسلمين والفرنسيين والعثمانيين » ظلت على سواء السبيل حتى استشرى فيها تيار الطبيعيين أو الدهريين ، ففسدت أمورها واضمحل شأنها .

ولتقرأ له يحكى جزءا من تاريخ العالم والفكر من وجهة نظره المصطبغة بالحماسة الدينية المتأججة ، فيقول بعنوان « الشعب الفرنساوى » :

« شعب قد تفرد بين الشعوب الاوروبية باحراز النصيب الاوفر من الاصول الستة الاخلاقية ، فرفع منار العلم وجبر كسر الصناعة فى قطعة أوروبا .. حتى ظهر فيهم وولتير «فولتير» وروسو يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم ، والقيام بانارة الافكار وهداية العقول ، فنبشا قبر أبيقور الكلبى واحييا ما بلى من عظام الناتور السم « الدهريين » ونبذا كل تكليف دينى ، وغرسا بذور الاباحة والاشتراك ، وزعما أن الآداب الالهية جعليات خرافية ، كما زعما أن الاديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانسانى .. فأخذت هذه الاضاليل من نفوس الفرنساويين ونالت من عقولهم ، فنبذوا الديانة العيسوية .. والاضاليل التى بثها هذان الدهريان «وولتر وروسو» هى التى أضرمت نار الثورة الفرنساوية المسعورة ، ثم مزقت بعد ذلك أهواء الأمة ، وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها .. نعم ان «نابليون الاول» بذل جهده فى اعادة الديانة المسيحية الى ذلك الشعب استدراكا لشانه ، لكنه لم يستطع محو آثار تلك الاضاليل .. فاستمر الخلاف بالفرنساويين الى الحد الذى هم عليه اليوم ..

هذه الأباطيل الدهرية قام عليها مذهب الكمون « الكميونزم » أى الاشتراكيين ، ونما هـــذا المذهب بين الفرنساويين ولو لم يتدارك الأمر أرباب العقائد النافعة والسجايا الحسنة لنسف الاشتراكيون كل عمران على أديم فرنسا ، ومحوا مجـد الأمة تنفيذا لأهوائهم وجلبا لرغائبهم !

هذا هو موقف جمال الدين من عصره حتى عام ١٨٧٠ ، وهو عام كتابته لرسالته ، وهذا هو تقديره للتيـار الليبرالى فى الفكر والفلسفة ، وهذا هو موقفه من العـلم والاشتراكية • وهو موقف سلفى شديد المحافظة • ولعل له في ذلك بعض الحق •• فنحن نعلم ان الغرب لم يؤثر فى الشرق بعلمه وحضارته فحسب، بل باستعماره واقتصاده المتقدم ، وكثيرا ما اختلط الوجهان فى نظر أبناء الشرق• فأنكروا الغرب جملة . وكل ما يأتى منه . ونحن مازلنا نسمع حتى الآن كلمة «الغزو الثقافى» يرفعها بعض الناس علما مرفرفا يجندون تحته أعوانهم ، رغم أن الكلمتين « غزو » و « ثقافة» لا يمكن أن تتآلفا بحال من الاحوال ، ورغم ان الثقافة الاوروبية ليست مسئولة عن الاستعمار ، بل لعلهـا كانت من عوامل تفتيـــح الوعى على وجوب محاربة الاستعمار والتخلص منه •

وقد انعكس هذا الموقف انعكاسا واضحا على جمال الدين فى مرحلة فكره الأولى ، فلم يجـد خلاص الشرق ، المســلم ، الا فى العودة الى حظيرة الخلافة العثمانية ، اذا اختصر النزاع بين أوروبا والشرق فى رأيه فى خـلافهما الدينى ، أو فى الدرع الدينى الذى لبسه كل منهما ليواجه به صاحبه • واختصرت المسألة الشرقية ، فى العراك بين الغربى والشرقى ، وقد لبس كل منهما لصاحبه درعا من الدين .

فالغربى تذرع بالنصرانية • والشرقى بالاســـلامية ، وأهل الديانتين كالآلة الصماء بأيدى محركيهما ، فالقـائمون بالنصرانية

يسخرون الدين لأجل الدنيــا ، والعــاملون بالاسلامية يسخرون الدنيا لأجل الدين ، فيخسرون الدين والدنيا معا .. !

ولكن الخلافة الاســلامية .. التى كان الافغــانى يدعو الى الانضمام تحت لوائها ، والتفانى فى خدمتها ، والموت فى سبيلها .. كانت للأسف هى خلافة بنى عثمان فى عهودها الاخيرة المحتضرة . التى تحــكم بغير ما أنزل الله ، وتضــطهد العرب والعربيــة ، وتستخذى تحت الضــغط الأروبى . وقد كان الافغــانى كثيرا ما يجادل نفسه فى شأن هذه الخلافة .. فيرى ســوءاتها ، ويلمس تخبطها ، ولكنه يظل يراها الملجأ الإخير من هذه الجيوش الاوروبية الزاحفة نحو العالم الاسلامى مشرقه ومغربه ، تقص من أجنحته ، وتستلب من أرضه ، فهو يقول عن السلطان عبد الحميد ، بعــد ذلك بزمان :

« أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، واعداده العدة اللازمة لابطال مكايد أوروبا ، فقــد دفعنى ألى مد يدى اليــه ، فبايعته بالخلافة والملك لما أعلم ، علم اليقين ، ان الممالك الاسلامية لا تسلم من شراك أوروبا ، ولا من السعى وراء اضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى الا بيقظة وانتباه عمومى ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم » ..

ولكنه يرى أيضا .. هذا الاضطهاد الذى يصبه الاتراك على العرب . وقد كان جمال الدين عربى الهوى واللسان ، رغم أصله الافغانى . فيتمنى على الزمان لو آستعرب الاتراك كما استعرب أهل مصر ، ولو انصفوا فى سيرتهم كما انصف بعض خلفاء بنى العباس .

« لو انصف الاتراك أنفسهم ، وأخــذوا بالحزم واستعربوا ، ورأسوا ذلك الملك ، وعدلوا فى أهله وجروا على سنن الرشيد أو المأمون على الأقل .. ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين لما كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة وأعز جانبا وأمنع حوزة »

لكن الأفغانى ـ رغم ذلك ـ لا يرى الا الوحدة الدينية طريقاً للنجاة من الغزو الأوروبى ، فيدعو اليها مع أخذ الاهبة والاستعداد العسكريين ، ولكنه لا يرى بعض القضايا الملحة كقضية الدستور وقضية العروبة كبديل للخلافة العثمانية ، وقضية تنقية الفكر السلفي وتطويره ••• حتى يصل الى مصر •

هل كان لقاؤه بمصر لقاء باحداثها وأزماتها ، أم لقاء بأهل الرأى فيها ؟

موجز الرأى .. انه كان لقاء بالتيارين معا ، تيار الأحداث وتيار الرجال ، وان هذا اللقاء هو الذى جلا الوجه المستنير للشيخ جمال الدين الافغانى •

- ٢ -

لا تنمو البذرة الا فى الارض الصالحة ، ولا تورق الكلمة وتصبح فعلا الا اذا كانت الاسماع متأهبة لاستقبالها ، وكانت الايدى متأهبة لاعطائها سلطانها وفاعليتها ، وهكذا تحولت كلمات الافغانى فى مصر الى أفعال لا الى أصداء • وقد أشرنا فى المقال السابق الى أن « الشيخ محمد عبده » قد وصف مصر قبل نزول الافغانى ، فجار على الواقع لينصف الشيخ العظيم • اذ أعلن أن مصر ، قبل مجيئه ، كانت قد خلت من كل صاحب فكر أو تدبير ، حتى جاء الشيخ فأنشأ ذلك كله انشاء .

يقول محمد عبده :

« ان أهالى مصر قبل عام ١٢٩٣ هجرية •• كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب ارادته ، ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ،

ولا يرى احد منهم لنفسه رايا يحق له أن يبديه فى ادارة بلاده ، او ارادة ينتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته . ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى انهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم ، وكانوا على غاية البعد عن معرفة ما عليه الامم الأخرى .. سواء أكانت اسلامية أم أوروبية ــ ومع كثرة من ذهب منهم الى أوروبا وتعلم فيها من عهـد محمـد على الكبير الى ذلك التاريخ وذهاب العدد الكثير منهم الى ما جاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد على باشا الكبير وابراهيم باشـا ، لم يشـعر الأهالى بشيء من ثمرات تلك الاسـفار ، ولا فوائد تلك المعارف مع أن اسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر عام ١٢٨٣ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى ان لهم شانا فى مصالح بلادهم ، وان لهم رايا يرجع اليه فيها ..

هذا تشخيص محمد عبده لحال مصر قبل نزول جمـال الدين بها .. وهو رأى لابد أن نحكم بصوابه لو كان الأمر متعلقا بسواد هذا الشعب ، فحين تستحكم الأمية ، ويمد الفقر سلطانه فلن تجد رأيا أو نظرا أو تفكيرا فى مصالح الامة ، وقد ابتليت مصر بالامية والفقر منذ زمن بعيد . والفقراء والأميون لا يتحركون للاصلاح الا اذا حركتهم ثورة شعبية شاملة ، كما حدث فى عـام ١٨٨٢ حين قامت الثورة العرابية ، أو فى عام ١٩١٩ حين قامت الثورة الشعبية الواسعة . أما من ناحية النظر والتدبر والتفكر فى شئون الأمة .. فيستوى الامر قبل وصول جمال الدين أو بعد وصوله واقامته . اذا كنا ننظر الى الأمر من زاوية ارتباطها بسواد الشعب الأمى .

ان الأمم التى تمر بالمرحلة التى كانت تمر بهـا مصر فى ذلك الزمان ، لا بـد أن تعتمد فى نظرها وتفكيرها على طلائع ما نسميه بالطبقة المتوسطة ، التى تستطيع أن تحل طلاسم القراءة والكتابة، وأن تملأ بطنها بالخبز والادام ، فهى عندئذ تستطيع أن تتطلع الى

ملء عقلها بالمعرفة ، وتستيقظ عندئذ فيهـا نزعات الحرية وادراك المصلحة العامة .

وقد كانت الطبقة المتوسطة المصرية ، قد بدأت فى ارتفاعها وامتدادها قبل وصول الافغانى الى مصر، فقد جند محمدعلى المصريين حين فشل فى تجنيد المرتزقة الاتراك والمماليك ثم السودانيين ، وحاول أن يسترضى المصريين ، وبخاصة فى أيام خلافه مع السلطان العثمانى وحروبه فى الشام والأناضول ، ونجد فى مخطوطات عابدين .. نقلا عن الكتاب القيم « لغة الادارة فى مصر للاستاذ عبد السميع الهراوى » أن « محمد على » أصدر أمرا الى محافظ دمياط بالتركية هذه ترجمته :

« انه علم بالاحتفالات التى قوبل بها (آلاى حسين بك) من الأهالى والقناصل ، وبما تفوه به (على أغا) ناظر السلخانة . وقوله فى محفل الاستقبال ـ صار الفلاحون العمى عساكر ، ومهما كانوا لا يكونون مثل عساكرنا الترك ـ وعليه فاضربوه مائة نبوت على اليته . وينفى وان عاد يصلب .. »

ولكن (محمد على) لم يسمح للمصريين بأعلى من رتبة العسكر الا فى بعض الحالات القليلة ، فلما جاء « سعيد » سمح للمصريين بالترقية الى وظائف الضباط ، وكان هؤلاء الضباط هم الذين أسهموا فى تكوين الحزب الوطنى الأول ، وهم الذين قادوا الثورة العرابية فيما بعد .

وبجانب هذه الفئة كانت هناك فئة المتعلمين الذين تعلموا فى مدارس محمد على أو فى بعثاته . ومن الحق .. ان محمد على ـ وهو الرجل البالغ الذكاء والدهاء ـ كان يتوجس خيفة من التعليم . اذ كان يريده مجرد وسيلة لتخريج الموظفين ، ونحن نراه يوضح سياسته التعليمية فى خطاب يرسله فى عام ١٨٣٦ الى

ولده ابراهيم ، يندد فيه بالتعليم العام .. ويرى فيه أن أوروبا قد تورطت فى تعليم كافة الناس حتى يقول :

« فاذا كان هذا المثال أمام الانظار ، فمن الواجب أن تتفضلوا فتكتفوا بتعليم القراءة والكتابة لعدد منهم واف بأعمال الرياسة ، غير مولعين بتعميم ذلك التعليم » .

وقد انتكس التعليم فى أيام عباس الاول وسعيد، حتى أوشك سعيد ان يجعل الجهل شعارا لحكمه .. اذ أغلق المدارس . ومنح المطبعة الأميرية ببولاق هدية الىأحد خاصته، واسمه «عبدالرحمن رشدى بك» ليستعين بها على زيادة دخله وتوفير معاشه ، وفى هذه الاثناء كان أولئك الذين تعلموا ، فى أيام محمد على ، يقتربون من شيخوختهم المثمرة ، يتقدمهم شيخهم العظيم رفاعة رافع الطهطاوى، حتى يعود التعليم لازدهاره فى أيام اسماعيل ، التى كانت قد مضت منها ثمانى سنوات يوم نزل جمال الدين الافغانى مصر .

ونحن نجد الأسماء المصرية اللامعة ، تقود هذه النهضة التى أرادها اسماعيل ، فان لفيفا من المصريين يترجمون قانون نابليون ليكون هو القانون المدنى .. ويكون رأسهم هو رفاعة الطهطاوى ، بل ان واحدا من أبناء مصر هو الذى يتولى نظارة التعليم فى أيام اسماعيل ، وهو الذى ينشىء دار العـــلوم والكتبخانة الخديوية ، ذلك الرجل هو .. على باشا مبارك .

قد كان من اصــلاحات اســماعيل .. أن أنشــأ منــاصب « العمد » فى القرى ، واختار العمدة من كل قرية من أهل اليسار فيها .. واستطاع هؤلاء العمد والأعيان الجدد ــ بذكائهم ودأبهم ــ أن يتقربوا من مراكز السلطة ، وأن يحصلوا فى بعض الأحيان على الرتب التى تميزهم عن غيرهم كرتب البكوية والباشــوية ، وهم الذين اختارت الحكومة نفرا كبيرا منهم لكى يكونوا أعضاء فى أول

مجلس نيابى حديث عرفته مصر ، وهو مجلس « شورى النواب » الذى أنشأه اسماعيل فى عام ١٨٦٦ .

هذه الروافد الثلاثة .. الجيش المصرى ، ثم الموظفون ، ثم العمد والاعيان ، هى التى كونت الطبقة الوسطى المصرية التى كان وجودها فى أيام اسماعيل حقيقة واقعة ، والتىقادت الثورة العرابية فيما بعد ، بل ان ابنـاءهم هم الذين تولوا قيـادة سفينة مصر حتى عام ١٩٥٢ ، فان سعد زغلول ومحمد محمود ولطفى السيد ومحمد حسين هيكل مثلا .. هم من أبناء أعيان القرى، بينما كان مصطفى كامل ابنا لعلى أفندى محمد من احدى قرى طنطا ، الذى أصبح ضابطا وموظفا بالحكومة ، وكان أخوه ، الذي رعاه وقام له مقام الأب ، مهندسا أصبح وزيرا للاشغال .

حديث هذه الطبقة

هذه الطبقة الجديدة .. لابد انه كان لها حديث واسمار حين تلتقى ، وحين تكتب فى «الوقائع المصرية» أو «روضة المدارس» أو جريدة «مصر» أو «جريدة التجارة» ، ولا بـد أنه كان لهـا حديث وأسمار حين تشهد بدايات الزحف الاوربى على مصر ، واتساع مدى ديون اسـماعيل ، وحين تراه يشق الشوارع ويشـيد المسارح والقصور والحدائق تشبها بأوربا ، واسـتعدادا لاستقبال ضيوفه حين يفتتح قناة السويس ، بل وحين تراه يسعى سعيا حثيثا الى فصل مصر تدريجا عن الدولة العلية ، وحين نراه يحاول أن يجعل لهذه البلاد مجلسا نيابيا ، وأن يوسع من سلطات مجلس النظار ومكانته ليستكمل ملامح الملك العصرى .

ولا تظن أن الطوائف الثـلاث من أبنـاء هـذه الطبقة كانت ساكنة .. فنحن نرى عرابى يحدثنا أن سـعيد أهداه كتـابا عن نابليون ، فلما قرأه دفعه الى التفكير فى الاصلاح ، وانه كان يتالم

لسيطرة الشركس والاتراك على الجيش منذ وعى أوضاع البلاد .
ونحن نرى رفاعة الطهطاوى يحدثنا فى كتابه «مناهج الالباب» عن أنظمة الحكم ومشكلات الاقتصاد ، ونحن نعرف ان أعيان المصريين الخلص كانوا يأبون الا أن يزاحموا فلول الأتراك والشركس فى سياسة الدولة ، حتى يظفر منهم الكثيرون بمناصب الوزراء .

ولابد ان هؤلاء جميعا .. قد التقوا بالافغانى كما التقى بهم، لا بد آنه قد أفاد منهم كما أفادوا منه ، ولكن الفائدة الكبرى التى أفادها فكر الافغانى .. كانت ، بلا شك ، هى معايشته لحياة مصر فى هذه السنوات التى عاشها فيها بين عامى ١٨٧١ و ١٨٧٩ اذ يشهد انهيار حكم اسماعيل تحت وطأة طموحه غير المحسوب ، هذا الانهيار الذى تمثل فى انشاء صندوق الدين واحكام السيطرة على مقدرات مصر ، ثم فى عزل اسماعيل وطرده من مصر .

لقد نبهته هذه الأحداث .. الى ان القضية ليست قضية دين فحسب ، بل هى قضية أسلوب حكم فردى لابد أنيقود الى الكارثة، وقضية تخلف اقتصادى يجعل الشرق يقف عاجزا مهيض الجناح أمام الغرب ، أو هى بالاحرى قضية حضارة ..

وربما كان الافغانى لم يعبر عن قضية الحضارة هذه بشكل مباشر وموجز . ولكنه بلا شك عبر عن تفاصيلها ، فبينما نراه فى كتابه الاول «الرد على الدهريين» معنيا بمهاجمة الالحاد والذود عن حياض الشريعة .. نراه فيما بعد فى كتاباته بالعروة الوثقى ــ بعد نفيه من مصر ــ مهتما بالمشكلات المعاصرة ، مثل السيطرة الاستعمارية والاستعانة بالاجانب فى أمور الحكم ، واتخاذ شكل الحكم النيابى وفوائد الصناعة وتحرير المرأة ، بل انه يتحدث عن الاشتراكية مقارنا بين اشتراكية الغرب التى تقوم على الضغينة والحقد ــ فى رأيه ــ واشتراكية الاسلام ، ثم ينتهى الى القول :

« ودعوى الاشتراكية ، وان قل نصراؤها اليوم ، فلابد أن تسود العالم ، يوم يعم فيه العلم الصحيح ويعرف الانسان أنه وأخاه من طين واحد أو نسمة واحدة ، وأن التفاضل انما يكون بالانفع من المسعى للمجموع ، وليس بتاج أو نتاج ، أو مال يدخره أو كثرة خدم يستعبدها أو جيوش يحشدها أو غير ذلك من عمل باطل ومجد زائل » .

القضايا الثلاث

كان جمال الدين طوال حياته داعيا الى الثورة الاسلامية الشاملة ، التى تبدأ باتحاد بلاد الاسلام من ترك وفرس وأفغان وعرب ، لكى يقفوا فى وجه الاستعمار الاوروبى الزاحف ومن الحق انه عبر أكثر من مرة عن محبته للعرب، وتقديمه لهم على غيرهم من شعوب الاسلام .. ولكنه كان ، فى الوقت ذاته ، يرى ان مكانهم يجب أن يكون فى ظل الخلافة الاسلامية العثمانية . ولا نظن أن الافغانى أو أحدا من معاصريه ، كان يستطيع أن يرى لأى مسلم انتماء يبتعد به عن مجال السيطرة التركية ، فقد كانت دعوة القومية العربية لم تتبلور بعد ، بينما كانت الدعوة التى بدأت تشق طريقها هى الصيحة التى أعلنها الحزب الوطنى الاول « مصر للمصريين » وكانت تعنى عندئذ .. التخلص من رئاسة الاتراك والشراكسة المحليين ، وتعبر عن طموح الطبقة الوسطى المصرية الناشئة الى احتلال مناصب الدولة العليا .

وسيظل تاريخ الوجدان المصرى الى خمسين سنة أو يزيد بعد مغادرة الافغانى لمصر فى عام ١٨٧٩ مشغولا بهذه الالوان الثلاثة من الانتماءات .. الانتماء للجامعة الاسلامية ، أو الانتماء العربى أو الانتماء الى مصر ، حتى يدرك هذا الضمير أن هذه الانتماءات الثلاثة لا يعارض بعضها بعضا ، وانما يتمم كل منها الآخر بشكل من الاشكال .

كما سيظل الضمير المصرى موزعا بين اتجاهين نبتا فى تلك الأيام، واختلف حولهما المستنيرون من أبناء مصر .. هل يكون التغيير بالثورة أم يكون التغيير بالاصلاح . أما الذين يرون التغيير بالثورة فسيكونون هم ضباط الجيش المصرى وقادته ، وسيكون لسانهم الناطق هو عبد الله النديم ، أما الذين يرون التغيير بالاصلاح فسيجدون فى التعليم قصارى أمانيهم ، ويحلمون بأمة قارئة كاتبة، وسيكون منهم على مبارك الذى يبتعد عن الثورة العرابية فى أوج التأهب لها ، حتى اذا شبت واشتعل أوارها .. عاد الى قريته فى « برمبال » ليصلح أرضه ويتعهدها ، فاذا استتبت الأمور .. رجع الى سدة الوزارة مستأنفا مشروعاته التعليمية . وسيكون منهم محمد عبده الذى يميل الى الثورة بعض الميل ، حتى اذا فشلت لام النفس على تورطه فيها ، وفى باريس يلتقى بشيخه جمال الدين الافغانى ، فيصدران معا جريدة « العروة الوثقى » وتتوالى اعدادها ثمانية عشر عددا فى ثمانية أشهر ، ثم لا تلبث أن تمنع من شتى البلاد الاسلامية ، فيعود محمد عبده الى طبيعته كمعلم ، ويقول لشيخه جمال الدين :

« أرى أن نذهب الى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة من الدول المعادية ، وننشىء مدرسة نختار لها التلاميذ من نجباء الناشئين فى الأقطار الاسلامية ، ونربيهم على منهج قويم نختاره .. فلا تمضى عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الارض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار » .

ولا يعجب الثورى « جمال الدين » بحديث المعلم « محمد عبده » فيقول له :

« انما انت مثبط ! »

لقد اتضحت فى شخصية الرجلين علامات اختبار آخر سيخوضه الضمير المصرى بين التغيير بالثورة والتغيير بالاصلاح ، وسيرتفع لواء الشعار الثانى بعد فشل الثورة العرابية التى تستحق وقفة متأنية على مشارف تفكيرها ..

◆ ◆ ◆

٤

مـا قبل الثلاثـاء الحزين .. وبعـده



• أوربا .. خيرا أم شر ؟
• هدية الأعيان الى قائد الاحتلال
• هل تراجع عرابى عن أفكار الثورة ؟

في صباح الثلاثاء الحزين ، الحادى عشر من يوليـــو عام ١٨٨٢ ، انطلقت القذائف من البحر تتساقط على قلاع الاسكندرية ومبانيها ، حتى دكتها دكا ،ثم هبط الجنود الانجليز الى المدينـــة المحترقة ، التى هرب منها معظم أهلها ، مندفعين دون وعى يهربون من خطر الحريق والموت الى الأم التشرد والضياع ، يصف الشيخ محمد عبده هؤلاء المهاجرين قائلا :

« نحو مائة وخمسين ألفا من السكان ، مجردين من كل شيء ، أخذوا فى الحركة لغير قصد ولا لمأوى • الموت والفزع ملء نفوسهم ، على شطوط المحمودية الى دمنهور ، وجسر السكة الحديدية من دمنهور الى القاهرة ، كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضـــة وأخرى رفيعة ، متحركة فى كل جبهة ، أشبه بسلسلة انســـانية طويلة • هنا ينزلون وهناك يمشون ببطء •• ولا وقاية ولا عيش ، على طرفى تضاد مع سماء صافية وأرض نضرة •

كانوا كالأعاصير ، أو كماء انكسر سده فاندلق يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين فى حالة عقلية أشبه بالجنون ، سـائقين أمامهم أو حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم •• حيوان • أثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التى لا قيمة لها •

فى هذه الحالة ـ حالة شعب طرد من بيتـه ـ كان الحـــر شديدا ، وغيم من الغبار سد الأفق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض ، يتضاربن •• عربات بلا عجل استعملت مساكن •• عربات من كل نوع ، بعضها ســـاقط فى المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ، بعضها بغير خيل ـ روائح شى اللحم •• صياح على المارة « الخبز ! الخبز ! »

هذه اللوحة التراجيدية الحزينة ، التى تسجل يوما ثقيلا من أيام عذاب مصر ، ثم ما تلاها بعد ذلك من فواجع النفس ، اذ انهارت الثورة ٠٠ وانهار معها قوادها يطلبون عدالة الانجليز وعطفهم ويسلمونهم سيوفهم بدلا من أن يموتوا شهداء ـ بل ويذهب بهم الهلع الى التبرؤ من صحيفة مفاخرهم ، وانكار أعمالهم وأقوالهم ، والقاء اللوم على بعضهم البعض ، ثم ما تلا ذلك كله من انهيار البناء المصرى حكومته ، وجيشه ، ومجلسه النيابى ، وتسلط الاحتلال على مقدرات البلاد ، كل ذلك لم يغب عن الوجدان المصرى لحظة فيما تلا ذلك من أحداث وما صاحب تلك الأحداث من تفكير وتدبير وتأمل ٠

نابليون ٠ فريزر ٠ بوشان سيمور ٠ ثلاثة من رجال الغرب يأتون الى مصر فى مدى أقل من قرن من الزمان ، تتقدمهم شعل النيران وقذائف اللهب ٠٠ ترى ماذا تريد بنا أوروبا ، لقد تنبهنا الى أنهم يعرفون مالا نعرف ، فحاولنا أن نلم بمعارفهم ، نكتسب خبراتهم ، وتنبهنا الى أنهم لا يعيشون كما نعيش ، فحاولنا أن نقرب أسلوب حياتنا من أسلوب حياتهم ٠٠ اننا نقلدهم ونتعلم منهم ، بل اننا نريد أن نحكم بلادنا كما يحكمون بلادهم ، فنقر فيها حكومة مسئولة ، ودستورا ينظم العلاقات بين الحاكم والمحكوم ٠٠ اننا نريد أن نتقدم على طريقتهم ، وقد نلتقى ببعض أهل أوروبا حين يقدمون الى بلادنا حاملين خبراتهم ، فنجد فيهم العلم والفضل والمحبة ومن منا لا يذكر سليمان الفرنساوى وكلوت بك وموجل بك وغيرهم ولكن هؤلاء الغزاة أوربيون مثلهم ٠٠ يا لحيرة الضمير ٠٠ هل أوروبا خير ؟ هل أوروبا شر ؟ وهل نستطيع أن نتبنى حضارتهم دون أن نتعرض لضياع الشخصية وفناء الذات ، بل دون أن نتعرض لقصف المدافع وصليل السيوف ٠

ويقول بعض القائلين : لنطو هذه الصفحة كلها ، ليتنا طويناها منذ البدء ، وظللنا على بداوتنا وجهلنا المزعوم ، فقد كان ذلك أجدى على استقلالنا وأصون لأرواحنا ٠٠ ان أوروبا ليست الا قشورا

من العلم الزائف ، لا تنفع الا فى تيسير بعض أمور الناس ، التى يستطيعون الاستغناء عنها ، لدينا من تقاليدنا وعلم أجدادنا ما يقوم مقام هذا العلم ٠

ويقول آخرون : ان أوروبا ما زالت تعيش بعقلية الحروب الصليبية ، وانها لمعركة اسلام ضد مسيحية غربية ، وان علم أوروبا وحضارتها ليسا الا وسائل لتمييع مقومات وجودنا حتى يسهل عليها بعد ذلك افناؤنا والقضاء على ديننا ٠

وتصل النغمة الى مداها حين ينادى المنادون بالعودة الى الماضى واحياء ما جرى عليه الحال فى أيام السلف الصالح ، فما الحرية والدستور والشعب والعلوم العصرية الا كلمات ومعان مستحدثة لن يكون من عواقبها الا الضياع والهزيمة ٠

وتتسع الرؤية عند فريق آخر ، فيفطنون الى أن مواجهة أوروبا تعنى أن يكون لنا علم كعلمهم وصناعة كصناعتهم واقتصاد كاقتصادهم ٠٠

ولكن مواجهة أوروبا تظل على كل حال مشكلة تواجه الضمير المصرى الحديث ، وما بين الرفض الكامل والقبول المشروط تتعدد مواقف المفكرين المصريين ، ما بعد الثورة العرابية ، بل وفى أثنائها ، اذ أن الثورة العرابية واخفاقها كانا هما بداية التحام لمشكلات الضمير المصرى ، فقد انتهت المرحلة الأولى من اليقظة المصرية بالهزيمة والانكسار ، وتخايلت للعيون أيام الزهو العظيم تمر كالاحلام ، ثم تهوى فى هاوية الحاضر الأليم ، منها يوم وقفت فيه جيوش مصر تقرع أبواب الاستانة ، ويوم اجتمع فيه الجيش أمام قصر توفيق يطالب بدستور للأمة ، ويوم صدر فيه دستور للأمة يبعد عن أموالها رقابة الوزيرين الأجنبيين ، وغير هذه الايام من مواسم المجد والعظمة ، ثم تخايلت للعيون أيام العذاب والسجن ، وتطلعت العقول بعد ذلك ٠٠ الى اعادة النظر واستخلاص العبرة ٠

لقد كانت مصر تواجه سؤالين ، أولهما عن الانتماء المصرى ٠ أهو عثمانى أم عربى أم مصرى ، وثانيهما عن الاصلاح ، هل يكون بالثورة أو بالتعليم ، وها هى ذى تواجه سؤالا جديدا عن علاقتها بأوروبا ٠

وعن هذه الأسئلة الثلاثة ، ومنها ، سيدور اجتهاد التفكير المصرى وذكاؤه ، وسوف تتعدد الاجابات ، حتى يستقر لمصر قرار ٠

ولقد كانت الثورة العرابية فى جانبها النظرى ٠٠ أول اجابة مطروحة على هذه الأسئلة الثلاثة ، أو هى فى الحق أول محاولة للاجابة على هذه الأسئلة ٠

لقد تآخى فى الأيام الأولى للثورة العرابية جناحان كبيران ، هما جناحا الضباط والأعيان ، وكلا الجناحين قادته مطالبه الخاصة الى المطالب العامة ٠ ولقد بدأت الثورة قبل انفجارها الأخير بحوالى ثلاث سنوات ونصف ، حين أحالت وزارة نوبار الفين وخمسمائة من ضباط الجيش المصرى الى الاستيداع فى فبراير عام ١٨٧٩ بدعوى الضائقة المالية ، فاحتشد هؤلاء الضباط وضربوا نوبار ،وحين حاول اسماعيل خديو مصر التدخل بعد ذلك ، كاد أن يضرب ٠

وبعد ذلك بشهر واحد تقريبا كان مجلس النواب يقرر الاعتصام بعد أن صدر قرار حله ، لأنه أراد أن يمارس دورا فعليا فى مناقشة شئون البلاد ، أما سجل هذا المجلس منذ عام ١٨٦٦ ، حتى عام ١٨٧٩ فيكشف عن اهتمام أعضائه من الأعيان والعمد بالمشكلة المالية ، وبخاصة اذا تعرضت لأموالهم أو للضرائب المفرضة على الأرض الزراعية ، وقد كان النزاع الأخير بينه وبين الحكومة حول قانون المقابلة ، وهو قانون أخذت به الحكومة ضرائب الأرض الزراعية مقدما لسنوات طويلة ، ثم حاولت بعد أن تأزمت الأمور أن تلغيه وتعود الى استخلاص الضريبة مرة ثانية ، فثارت ثائرة النواب ٠

ولقد كان الاعيان أسرع في الحركة والتجمع من الضباط ، اذا اجتمعوا في منزل أحد كبرائهم ، وهو السـيد على البكرى نقيب الاشراف ، ثم نقلوا اجتماعهم الى منزل اسماعيل باشا راغب ، وتمخضت اجتماعاتهم عن مشروع لائحة وطنية دعوا فيها الى مطلبين، أولهما تسوية الحالة المالية ، وثانيهما اشراكهم فعليا فى حكم البلاد ٠

وقدم الأعيان مذكرتهم الى الخديو الذى قبلها ، وأصدر بيانه الذى يقول فيه « ٠٠ وبناء على هذا اجتمعت جمعية حافلة من حضرات أعضاء شورى النواب ، والعلماء الاعلام والذوات الفخام والمأمورين الكرام ووجوه البلد وأعيان المملكة ومعتبرى الأهالى ٠٠ الخ » ٠

وفرح الأعيان بالنصر الذى حازوه ، وما لبثوا أن تفتح وعيهم الوطنى على الرغبة الملحة فى المشاركة فى حكم البلاد ، وكانت الحركة الوطنية تقوى فى الجيش أثر اضطهاد « عثمان رفقى » الشركسى للضباط المصريين ، فالتقى التياران ، تيار الأعيان الذين كان يمثلهم محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب أيام توفيق ، وتيار الجيش الذى كان يمثله عرابى ٠

ولكن الفريقين المتحالفين ما لبثا أن اختصما حين جد الجد ، أما فريق الاعيان فقد تبرأ من الثورة ، ولاذ بالخديو ، بينما تصدى الجيش وحده لمواجهة الغزو الأوروبى ٠

لقد كان الفريقان متحالفين ، يوم أن كان شعار الحركة هو مصر للمصريين ، كل من الفريقين يدرك الشعار بمعنى مختلف ٠٠ الأعيان يطمعون فى وراثة فلول الأتراك فى حكم البلاد ، بحيث يتاح لهم أن يشرعوا لها ، ويديروا أمورها ، ويوجهوا خطواتها ، أما المصريون فى الجيش فانهم يطمحون الى تولى الصدارة وزيادة الرواتب، وقد كان هذان الموقفان على أية حال ، اجابة على مشكلة الانتماء ، فالأتراك ليسوا أصحاب حق فى البلاد ، لعلنا نجد نبرة الاستقلال

شديدة البروز فى الردود المتوالية لمجلس شورى النواب على خطب الافتتاح التى يلقيها الخديو « أو خطابات العرش » فى أيام اسماعيل، بحيث لا يرد فيها ذكر للسلطان العثمانى ، وقد حسمت هذه المسألة بشكل أوضح حين تدخلت الاستانة فى أيام الثورة العرابية تدخلها الضار اذ أعلنت عصيان عرابى • وقد كان المظنون بالنزعة التركية العثمانية بعد ذلك أن تذبل وتنمحى لولا الاحتلال الانجليزى ، اذ أصاب المصريين بالحيرة والقنوط ، وساء ظنهم فى أوروبا كلها ، وتخيلوا ان لو كانت الدولة العثمانية قوية لحاولت انقاذهم ، كما أنهم ظنوا أن قطع الانتماء الى الدولة العثمانية ينتج عنه أن يصبح الاحتلال الانجليزى شرعيا ، ومن هنا قال محمد عبده ذات مرة ان الخلافة الاسلامية هى ثالثة الشهادتين بعد الشهادة لله ورسوله ، ومن هناك أيضا حرص مصطفى كامل بعد ذلك على توكيد الانتماء العثمانى فى المرحلة الأولى من جهاده •

واختلف الفريقان أيضا •• الجيش والاعيان فى منهج الاصلاح أما الاعيان فقد كانوا يرون الطريق البرلمانى أسلم عاقبة وأكثر جدوى ، وكانت تجربتهم البرلمانية قد نضجت بعض الشىء خلال ممارستهم للنيابة عن الأمة ، كما أنهم كانوا قد استطاعوا أن يقرروا بعض المبادىء الدستورية وبخاصة فى لائحتى ١٨٧٩ و ١٨٨٢ ، لقد بدأت مطالبهم متواضعة حين طالبوا بعدم جلد العمد والمشايخ حرصا على كرامتهم الشخصية أمام الفلاحين ، وهو أسلوب كان شائعا اذا قصر أحد العمد فى جمع أنفار القرعة أو أموال الضرائب، ثم ما لبثت مطالبهم أن اتسعت بحيث شملت الرقابة على أموال الشعب ، وبحيث أقر الدستور أن النائب ليس نائبا عن قريته فحسب ، بل هو نائب عن الامة كلها ، وقد كانوا يطمحون الى أن تظل الأمور تدور فى الدائرة الدستورية ، وكان رجلهم الذى يرضونه للحكم هو شريف باشا الكبير • أما الجيش فقد قادته سفينة التأييد الشعبى الى الثورة المسلحة • وانقسم « العلماء الاعلام

والذوات الفخام والمأمورون الكرام ووجـــوه البلد وأعيان المملكة ومعتبرو الأهالى الى فريقين ، فريق كبير أخلد الى السكينة أو مال الى جانب الخديو ، وفريق ضئيل معظمه من أشياخ الازهر وطلابه مال الى الثورة المسلحة » ·

وحين فشلت الثورة المسلحة ارتفعت نبرة الاصلاح البطىء أو المعارك الجزئية ، فوجدناها عند محمد عبده ترويجا للتعليـــم وعند قاسم أمين مطالبة بتحرير المرأة ، وعند لطفى السيد مطالبـة بالدستورية ، وعند مصطفى كامل وسعد زغلول تنظيما لأول جامعة مصرية ·

لقد استنكر الجميع دور الثورة المسلحة ، حتى أصحابهـــا ومشعلو نارها ، قال معظم قادتها انهم لم يقصدوا الى ما حدث وأن الأمور قد جرت بما لم يكن فى الحسبان ، وتسابق الأعيان الى تقديم فروض الطـاعة والولاء لجيش الاحتلال ، فسعى ستة منهم هم : محمد سلطان ومحمد الشواربى وعبد الشهيد بطرس وعبد السلام المويلحى ومحمود سليمان « والد محمد محمود » وأحمد السيوفى الى قواد الحملة الثلاثة : سيمور وولسلى ودورورى فى تكوين لجـــان شعبية للاكتتاب فى هذا الفرض « الوطنى » العظيم ·

أما محمد عبده ، فقد قال انها كانت « فتنة » وما لنا نذهب بعيدا ، وعرابى نفسه حين عاد من منفاه أدلى بحديث كئيب يمتدح فيه الاحتلال البريطانى ، نثبت بعضه هنا والقلب يدمى ، والنفس تأسى لهذه الأمة المفجوعة التى عانت من العذاب ما صهر ضميرهـــا حتى أوشك أن يحرقه ، وكان أوجع ما عرفته هو خيبة أملهـــا فى الرجال الذين أحبتهم ·

قال عرابى فى حديث له بالمقطم عدد ٣ أكتوبر عـــام ١٩٠١ « سألت الذين قابلونى بالعريش من أفراد أسرتى « أصـــحيح أن السخرة الغيت من عندكم ، فقالوا : نعم صحيح ، قلت : والكرباج؟

قالوا أبطل من زمان طويل• قلت : وكيف تحصل الأموال من الأهالى
قالوا بالحق والعدل ، وكل انسان يعرف ما له وما عليه •• وقد
شاء الله أن ينعم على وطنى ولكن لحكمة له جل جلاله قضى ألا يتم
ذلك على يدى ، بل على يد الذين نازلناهم فى ساحة القتال وكانوا
لنا أعداء فصاروا لمصر اليوم من خير الاصدقاء ، وقد قضى الله أن
أكون واسطة هذا التغيير ، فأنال وطنى ما كنت أتوخى وأتمنى له من
الخير •• بحسن تدبير جناب اللورد كرومر الادارى المصلح الكبير »

لقد هزمت أوروبا مصر لا فى أرضها فحسب ، بل فى روحها أيضا •

رجل واحد من أبناء الثورة ظل مشتعلا بروح الثورة ، رجل ليس من طائفة الضباط ولا من طائفة الأعيان ، ولا من طائفة المتعلمين •• ولكنه ابن من أبناء هذا الشعب وأحد صعاليكه العظام •

هذا الرجل هو •• عبد الله النديم •

◆ ◆ ◆



الصعلوك العظيم



- صالون أدبى فى محـل الطـرابيشى !
- عشر صـحف يومية لخمسـة ملايين !
- يرفض الاعتـذار عن الثـورة

- ١ -

تحول ابن الشـــعب من أدباتى الى أديب ، ومن نديم يسامر السادة بالفكاهات والطرائف الى ثورى يقض مضاجع السادة ويبدد أحلامهم ، ومن عبد من عباد الله المغمورين الى رجل من رجالات مصر اسمه « عبد الله النديم » .

وعبد الله النديم .. سيرة حياة وسيرة فكر معا ، وكلتا السيرتين لها من البريق والعظمة ما يستحق أن يقـف أمامهـا المؤرخ لوجدان مصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكما رأينا نمـاذج من هؤلاء المصريين الخلاقين المبـدعين ، يدخـلون المدارس ، فيهجرون اللعب بالطين فى قراهم المتربة المتسخة ، الى اللعب بالافكار أو الجد بها ، ويخلعون جلابيبهم الزرقاء أو البيضـــاء التى حال لونها الى تراب جامد ، فيلبسون «الحلة المقمطة» والطربوش العثمانلى ، سواء كانت حلة الملكية أو حلة الجهادية ، فيكون منهم بعدذلك الحكماء والمشرعون والمعلمون والصحفيون والقواد ، كما رأينا كل أولئـــك من أبناء المدارس يدخلونها برغبتهم كما دخلها رفاعة..أو بالقسر والاكراه حين يساقون اليها كأنفار السخرة كما دخلها على مبـارك ، فنحن نرى الآن رجلا دخل التاريخ من باب الحيـاة لا من باب المدرسة ، وعرف مصر عن طريق التسكع لا عن طريق التأمل ، ولكن الحيـاة كانت له أكرم بالعـلم من كثير من المدارس ، وكان التسكع أكثر اثراء لنفسه من كثير من التأمل ، هذا التأمل الذى وهب منه الكثير رجل اخرقاربه فى السن ، وصاحبه فى قاهرة الثـــورة ، وعاش بعـده سنوات قصارا ، ولكن لشد ما اختلف اتجاههما ، هذا الرجل هو « محمد عبده » .

وما نريد هنا أن نعرض للاستاذ الامام ، ولكننا نريد أن نزيد الامر جلاء بأن نعرض رجلا فى مواجهة رجل ، أما الاستاذ الامام فيقول بعد فشل الثورة العرابية «لعن الله السياسة، وكل مايصدر عنها .. لعن الله الفعل ساس .. يسوس .. » وأما النديم فيظل يتنفس سياسة حتى ذهب مرض السل بأنفاسه .

أنهما مزاجان ، أو طبيعتان ، ولا نقول انهما ينتميان الى طبقتين مختلفتين الا بمقدار ، فلم يكن الفرق بين طبقة أصحاب الحرف ، وطبقة صغار أعيان الفلاحين كبيرا الى الحد الذى يجعل لكل منهما مهادا فكريا مختلفا . كان مزاج النديم مزاج الفنان الشعبى ، الممثل ، المهرج ، الصحفى . رجل الدعاية . وأما مزاج الشيخ فقد كان مزاج المعلم المتفلسف المتأمل فى الامور ، الذى يتوقف ليسأل دائما عن الغاية والهدف ، قبل أن يخطو خطوة فى الطريق .. الرجلان هما مثالا الثورى والمعلم فى تلك الحقبة من الزمان .

سيرة حياة

كان أبوه خبازا فى الاسكندرية ، أراد لابنه أن يكون صبى خباز ، فلما أنس منه ذكاء قسر نفسه على أن يرسله الى معهد دينى بالاسكندرية ليعده للازهر ، ولكن ما شأن هذا الصبى القلق والجلوس على الحصير ساعات طوالا ، يسمع دروس النحو والفقه التى تبدأ باعراب كل شىء حتى مسائل الحساب ، انه ليجد كل ذلك مملا مسئما ، فيهرب من المسجد الى الطريق ، تلتقط عيناه وأذناه ملامح الناس ولهجاتهم وطريقتهم فى الحديث ويفكر فى شواغلهم وهمومهم ، ويتردد فى الوقت ذاته على مجالس الاسكندرية الادبية ، فيسمع ويحفظ فنونا من الشعر والزجل والخطب مما يتناقله الادباء والمتأدبون . ولم تكن المجالس الادبية لذلك العهد

صالونات مؤثثة فخمة تتصدرها جميلات النساء كمـــا عرفت ذلك فرنسا منذ القرن الثامن عشر ، ولكنها دكاكين أصـــحاب الحرف كالحلاقين والعطارين وغيرهم ، فكثيرا ما يكون صاحب الدكان مولعا بالادب والظرف ، فهو يمـد المقـــاعد للادباء والمتظرفين يسامرهم ويسامرونه ، وسوف نجـــد النـــديم فى أيامه القادمة يفتتح فى المنصورة محلا لبيع « الخردوات » ، فيحيله الى صالون أدبى ، ولا يجتمع القلبان فى جوف واحد ، فيفلس المحل وتطير منـاديل بائع الخردوات الاديب وعطوره فى الهواء ..

ولكن التسكع لايقيم أود النديم..فهو يبحث عن مهنة ، فيتعلق بأحدث المهن فى ذلك الزمان ، وهى مهنـــة .. التـلغرافجى .. ويتعلمها . ثم يستخدم فى بنها ، ويواتيه ما ظنه الحظ . فينتقل الى القاهرة ليعمل تلغرافجيا بقصر «والدة باشا» بجاردن سيتى ، فهو يرى فى هذا القصر فنونا من النعيم والترف والحظ والطرب ، ويصرف له الطعام من مطبخ القصر ويتلقى بعض البرقيات ويرسل بعضها الآخر ، وهو أيضا فى حمى اسماعيل اذ أنه موظف فى قصر والدته ، فاذا انتهى العمل خرج يتسكع فى القاهرة ، وتقوده قدماه الى صالوناتها الادبية ، ويستقبله صالون أحمـــد آفنـــدى وهبى الطرابيشى فى الغورية .. وعلى دقات قوالب الطرابيش ومكواتها ، يدور حديث الشعر والزجل ، ويقوده أحمد أفندى وهبى ذات مساء الى منزل شاعر مصر الكبير « محمود سامى البارودى » وهناك يرى صفوة أدباء ذلك الزمان ، فيرتوى من أدبهم ومحفوظهم ، ويجاريهم عندما تسنح له الفرصة .

وأخطأ النديم يوما فى فك رموز برقية ، فأحيل أمره الى خليل أغا كبير أغوات القصر ، وكان رجلا غريبا كأمراء المماليك القدامى يعمل عمل أهل النار بالدس والقسوة ، ثم يريد أن يدخل الجنة ببناء المدارس والسبل لسقى المـــاء . وأمر خليل آغا بأن يضرب النديم ويجلد .. ثم يفصل .

لا القاهرة اذن ٠٠ مأوى للنديم ولا الاسكندرية ، فليتسكع فى الريف والمدن الصغيرة اذا ضاقت به الحواضر ، وليعمل معلما لاولاد أحـــد العمد فى الدقهلية ٠ وبائع مناديل وعطور فى المنصـــورة ، وليتردد على الموالد ، وليكن ضيفا على رجال الادب ومحبيه فى كل مكان ٠ حتى يستقر به الرحيل فى جوار «شاهين باشا كنج» مفتش عام الوجه البحرى فى طنطا ٠

كان «النديم» قد ذهب الى طنطا ليتسكع فى مولد السيد البدوى٠٠ وعلى أحد المقاهى التقى بصـــديقه منذ أيام مجلس البارودى ٠٠ السيد على أبو النصر ٠٠ الشاعر ونديم اسماعيل المفضل ٠ ومر عليهما أدباتى بطرطور يشحذ منهما مليما أو بارة ، ويتوسل الى ذلك بأزجال من تأليفـــه ، وما زال النديم يرتجل ، والأدباتى يرتجل حتى أفحم الادباتى وفر هاربا ٠

وحكى على أبو النصر القصة للباشا التركى فضحك كثيرا ، حتى استلقى على قفاه كما يقولون ، وبالطريقة العثمانلية أمر بأن تنظم مباراة زجلية بين النديم وكبار الادباتية الذين كانوا يلتقطون فتات رزقهم فى أيام المولد ، فان غلبوا النديم كافأهم ، وان غلبهم النديم ضربهم جند الباشا على أعجازهم ٠

ورضى النديم ٠٠ ان الصعلوك مازال صعلوكا ٠٠ لم يتحول الى ثورى بعد ٠

بداية الثورى ٠٠

انتصر النديم فى المباراة ، وأصبح نديم الباشا بعد ان كان نديم الافندية والعمد ٠٠

ولكن الأيام الغريبة التى انضجت كل شىء فى مصر أنضجته ، فقد كانت سنوات اسماعيل الاخيرة حافلة بالاحداث ، كان عرش

اسماعيل يهتز من تحته والاصبع الاجنبية تمتد الى أحشاء مصر ، فتقرر الاشراف على وارداتها ومصرفاتها ، والنقاش يدور بين المتعلمين والمهتمين بشئون البلد حول الدستور والحكم النيـابى ، والفلاح يعانى من ضغط الضرائب والسخرة ، والاعيان يصرخون من الغـاء قانون المقابلة ، والضباط يحتجون على الاستيداع فيضربون نوبار ويوشكون أن يضربوا اسماعيل •• انها اذن أيام حاسمة ، وقد التقطت اذن الصعلوك العظيم كثيرا من أنبائها ، كما التقطت عيناه كثيرا من الآراء التى بسطتها الصحف حين أتاح لها اسماعيل قدرا من الحرية ليستعين بها فى صراعه مع الاجانب •

ويدرك النديم أن عقله وضميره يأبيان عليه ان يظل قانعـا بمكانه فى جوار الباشا ، فيهجر طنطا الى الاسكندرية ، لينضم الى جماعة سرية تسمى نفسـها « مصر الفتاة » فيقنع أعضاءها بأن يحولوها الى جماعة علنية تسمى نفسها «الجمعية الخيرية الاسلامية» ويكون انشاء المدارس وتعليم الشعب •

يتحول الأدباتى الى رجل تربية ، فيعلم تلاميذه فى المدرسة الأدب والشـعر والخطابة ، ويحـاول تنمية ملكاتهم ، ويستعين بمقدرته على التقاط اللهجات ، فينشىء فى المدرسـة فرقة تمثيلية يؤلف ويخرج لهـا •• ان التعليم عنده ليس تلقينا لمبادىء العلوم واللغة فحسب ، ولكنه تربية وطنية بأجلى معانى تلك الكلمة •

ويختلف النديم مع زملائه فى المدرسة لامر لا نسـتطيع أن نقطع فيه برأى ، فيتجه الى الصحافة ، ويخرج فى السـادس من يونيو عام ١٨٨١ فى الاسكندرية صـحيفته الشهيرة « التنكيت والتبكيت » • يكتب بعضها بالفصحى وبعضـها بالعامية حسب الموضوع ، ان كان موجها الى الصـفوة من الناس أو الى رجـل الشارع •• وهو يعلن مذهبه فى لغة الصحافة حين يقول :

« انه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات أو استعارات ،

ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبـــارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحـــاديث تعودناها ، ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجىء الى قاموس الفيروزابادى ولا تلزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها ، انما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى ..

وتدلهم الأمور ، وتستعلن الثورة ، وينتقل النديم بصحيفته من الاسكندرية الى القاهرة ، ويسميها « الطائف » استجابة لرغبة عرابى ، وتيمنا باسم المدينة الحجازية المعروفة . ويعلن الدستور فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ تحت ضـــغط العرابيين ، فتقام المآدب والحفلات ويخطب فيها النديم .. انه يخطب فى كل مكان .. فى المآدب والافراح والمعسكرات والمساجد .. « حتى كان اذا ســـئل محمد عثمان المغنى المشـــهور فى ذلك الزمان ، أين تغنى الليلة ؟ يقول : فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم .. » .

وتسرى الشائعات بمجىء البوارج الانجليزية الى الاسكندرية ، ويخطب النديم ويقول :

« ان طوابى الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الاستانة اذا أطلقت تبلغ هـــذه الجزيرة من الجانب الآخر ، فكيفما جالت الاساطيل الانجليزية ، فهى تحت رحمة مدافعنا » .

ويصفق المســـتمعون حتى تدمى أكفهم ، وربما ضحك بعض العقلاء فى أكمامهم ،فما زال فى الصعلوك القديم بقية من الادباتى .

بعـــد الثورة

وتفشل الثورة فشـــلها الاليم ، ويختفى عبد الله النديم فى ريف مصر تسع ســـنوات ، مطارداً من السلطة المصرية التى تولت الحكم بعد فشل الثورة ، محكوما عليه بالنفى المؤبد ، مطلوبا رأسه بألف جنيه مكافأة تدفعها الحكومة لمن يرشد عن مكانه .

غير النديم أسماءه وأزياءه فى هذه السنوات مرات تجل عن الحصر ، فهو مرة شيخ يمنى ، ومرة سائح من المدينة المكرمة ، ومرة حاج مغربى ، ولحيته مرة حمراء قصيرة ومرة سوداء مسبلة ، حتى دل عليه جاسوس من جواسيس السلطة فارشد عنه . فسـيق الى سجن طنطا ليحقق معه وكيل نيابة من ألمع وأعظم الشخصيات التى عرفتها مصر ، هو قاسم أمين .

لم يلح عليه قاسم أمين فى التحقيق كثيرا ، وأمر له بالقهوة والدخان على حســـابه ، كما أمر بتنظيف الزنزانة قدر الامكان ، وما كاد التحقيق ينتهى حتى كان أمر الخديو توفيق قد صدر بنفيه الى يافا بفلسطين ، ليعود بعد شهور قلائل وقد عفا عنه عباس خليفة توفيق ، وليصدر صحيفة « الاستاذ » .

عاد النديم ثوريا كما كان رغم ان كل شيء فى مصر كان يميل الى المهادنة والاستسلام ، كان الناس يطردون أشباح أيام الثورة عن أذهانهم كما تطرد الذكريات الكئيبة ، ويسعى ذوو البقية من النزعة الوطنية الى مهادنة عباس وشـــد آزره لكونه الممثل الشرعى للبلاد ، أما العقلاء فقد كانوا يلوذون بكرومر حاكم البلاد الفعلى ، يخطبون وده ، ويرفعون اليه آراءهم وأفكارهم .

ولنقارن هنا للمرة الثانية بين الرجلين : عبد الله النديم ، ومحمد عبده .. أما النديم فقد عاد كما عهدناه ، وأما محمد عبده فقد عاد من منفاه بوساطة كرومر حين حدثته الاميرة نازلى فاضل عن

كفاءته واستقامة فكره ، وكان سعد زغلول جليس صالونها قد حدثها حلو الحديث عن صديقه الغائب ·

ويعود محمد عبده ، فيبدأ جهوده الاصلاحية بكتابة تقرير عن اصلاح التعليم ، ويرفعه الى كرومر بوصفه صاحب السلطة الحقيقية في مصر ، بينما يعود النديم ليخاطب الشعب عن طريق صحيفته « الأستاذ » ·

كانت « الأستاذ » حربا على التدخل الأوروبى كما كانت الطائف · ودعوة الى الوحدة الشرقية والاسلامية في وجه الاستعمار، واستنهاضا لهذا الشعب الذى ذهبت الهزيمة بلبه أن يتماسك ويدرك مقومات وجوده ويحافظ عليها ، يحافظ على دينه وثقافته ولغته ، وتوقفت « الأستاذ » بعد أقل من عام من عمرها · ونفى النديم مرة ثانية ، ولم يكد يحط رحاله فى مصر ··

وفى الاستانة عاش النديم ثلاث سنوات وبضعة أشهر ، حتى مات فى العاشر من أكتوبر عام ١٨٩٦ ·

وفى هذه السنوات كان جمال الدين الافغانى يعيش هو الآخر فى الاستانة ، فى القفص الذهبى الذى أعده له عبد الحميد ، وكثيرا ما كان الثوريان يتلاقيان ، ويخرجان للنزهة فى أرباض الاستانة ، يتذكران أفعال الزمان ، وقدامى الاصدقاء ، ويدركان — والمرارة ملء حلوقهما — أن الطريق طويل ، وان ما أراداه من خير قد آل الى ضده ونقيضه ·

كان الأفغانى يتذكر ان البارودى ، وهو عنده أفضل من عرف من المسلمين ، عاهده مرة ألا يدخل وزارة رياض ، ثم دخلها ·

وكان يقول :

« ان مصر أحب بلاد الله الى ، وقد تركت لها فى الشيخ محمد عبده طودا من العلم الراسخ ،وعرمرما من الحكمة والشمم وعلو

الهمم ، وانى ليذهب بى العجب ، ويأخذ منى كل مأخذ عندما أرى المصريين فى جمود ، وأولى الهمة منهم فى قعود ، وكيف لم يتنسن الى الشيخ فى همته ونهضته ، وله من تلاميذه مثل سعد زغلول وأخوانه خير أعوان ، ولم تتألف منهم الى اليوم عصبة حق تصدم باطل الانجليز ، وتجليهم عن الهرمين وتصون الحرمين ، فلم يبق فى قوس الصبر منزع ولا فى معونة الغير مطمع » .

ولكن مصر كانت قد سارت فى اتجاه آخر .. انها تتحدث عن التعليم وتحرير المرأة واصلاح الأزهر وتجميع رأس المال الوطنى .. انها تخوض المعارك الجزئية ، فان درس الثورة الشاملة لم ينس بعد .

الرجل ..

بعد موت النديم بعام تقريبا مات جمال الدين ، وانطوت أعلام التيار الثورى ، كما انطوت الصفحة الناضرة الأخيرة من ذكريات الانتفاضة العرابية .

والمؤرخون يقولون ان النديم كان لسان الثورة العرابية . ولكنه فى الواقع لم يكن لسانها فحسب بل كان أحد أقطابها ، بل لعله أكثر اقطابها فاعلية ، وبخاصة بعد أن خرجت عن دائرة الجيش لتصبح ثورة شعبية يشارك فيها الجيش والاعيان وسواد الشعب معا ، فضلا عن كونه الممثل للجانب النظرى من حركتها ، فرغم أن من بين زعمائها رجلا كالبارودى ، له مكانه العظيم فى تطوير الشعر العربى.. الا أن رؤيته السياسية لم تكن واضحة له أو لرفقائه ، حتى أنهم شكوا كثيرا فى أنه انضم للثورة ، حتى يصل الى حكم مصر بوصفه من سلالة السلطان المملوكى «الاشرف برسباى» كما قال له عرابى فى احدى جلساتهما .

أما النديم ، فقد كان واضح الفكر ، وكان فكره هو محرك

الثورة فى أيامها الأخيرة ، ولكن هذا الحديث يستدعى وقفة متأملة عند فكر النديم .

- ٢ -

أصبحت البدعة التى أحدثها محمد على فى الحياة المصرية ، هى الشاغل المزعج لدولة أحفاده من بعد . ففى عام ١٩٢٨ حول محمد على جورنال الخديو أو النشرة الدورية التى كان يصدرها بأوامره الى ولاته وكبار موظفيه الى صحيفة سماها « الوقائع المصرية » ، وأمر بتوزيعها على من يتقاضون الف قرش شهريا من الموظفين ، على أن يدفعوا الاشتراك السنوى فيها .

ومرت الأعوام ، وأهل عصر اسماعيل باضطرابه واحتدامه ، وكان اسماعيل يبغى أن يوطد مكانتـه بين ملوك العالم بتحسين واجهة الحياة المصرية واسباغ الوان الزينة والزخرفة عليها فوجد فى الصحافة مثلما وجد فى الأوبرا والمسرح لونا من الديكور الذى يقنع أصدقاءه في أوروبا بعصريته واصلاحه . فى ظل هذه السماحة المداجية صدرت بعض الصحف « الاهلية » كالاهرام ووادى النيل وروضة الاخبار وغيرها .

وحين أصدر النديم صحيفته « التنكيت والتبكيت » كان فى مصر التى لا يزيد عدد سكانها عن خمسة ملايين نسمة حوالى عشر جرائد يومية ، يتفرق ولاؤها بين مختلف الاطراف المتنازعة على هذه الارض التى تواجه مصيرها . ورغم أن توزيع هذه الصحف كلها كان لا يتجاوز خمسة عشر الف نسمة ، الا أن هذه الصحف كان أثرها أكبر من عدد نسخها الموزعة اذا قيس الانتشار بمدى وصول الكلمة الى الناس ، ويحدثنا ميخائيل شاروبيم احد مؤرخى ذلك الزمان فى كتابه « الكافى فى تاريخ مصر » عن هذه الفترة قائلا :

« وتشوف الاهالى الى معرفة ما سيكون وتزايد تســاؤلهم عما فى صحف الأخبار وأكثروا من شرائها ، واضطر من لا يعرف القراءة الى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى الشوارع جماعات وبينهم الرجـل أو الصبى يقرأ عليهم ، أو يقف صبى فى حانوت وبيده صحيفة وأمام الحانوت خلق محدقون بالصبى وهو يقرأ » .

كانت الصحف تقوم اذن بدور الخطيب المتنقل الذى يخاطب الناس محاولا أن يثيرهم ، فهــو لذلك يصطنع ألوانا مختلفــة من التعبير ، منها البــلاغة والاســجاع والفــكاهات والقصة الوعظية والمعلومات المصوغة فى شكل جذاب . ولعل هــذا المعنى هو مافهمه النديم ، اذ كانت صحيفته التنكيت والتبكيت صــالحة للقراءة فى جمع أكثر من صلاحيتها ليقرأها الانسان منفردا ، وكانت أيضــا مثيرة للنقاش بعد قراءتهــا ، كأنهــا تدعو النــاس أن يقراوها ثم يتلحقوا حلقات لكى يتأملوا ما فيها ويعيدوا بحثه والنظر فيه .

ففى احدى صفحات العدد الأولى مقال قصصى أو ما نسميه قصة العدد ، وعنوانه «مجلس طبى لمصاب بالافرنجى» .. ومرض الافرنجى هو مرض الزهرى كما كانوا يســمونه فى ذلك الزمان ، والقصة قصة شاب جميل المحيا والخلق ، نشأ فى ظلال الفضيلة والورع حتى ترصد له أحد الماكرين ، فأخذ يعرض عليه الغوانى حتى مال الى واحدة منهن ، فأصابته مع اللذة التى اجتناها بمرض الافرنجى ، فأخذ أهله يطلبونه بعد أن ساءت حاله . وتدهــورت صحته والأطباء المخلصون يتأملون فى دائه ، ويصفون له الدواء ..

واظننا نستطيع أن نعرف ان هذا المريض هــو مصر ، وان هذا الداء الافرنجى هو الســيطرة الاوروبية ، وان هؤلاء الاطباء هم أبناء مصر المخلصون .

ومقال آخر ، أو نكتة ان صح التعبير عنوانها «عربى تفرنج» ،

وهى عن شاب اسمه « زعيط » من ابنــاء الفــلاحين ، ذهب الى أوروبا ليتعلم فلما عاد استقبله ابوه « معيط » على المحطة وقبله ، فلامه على تقبيله ، وطالبه بأن يكتفى بالسلام عليه باليد كما يفعل الفرنجة ، وأن يقول له « بون اريفيه » ثم يذهب الشاب الى أمه « مصيطة » فيطلب منها « الاونيون » أو البصل .

ومقال ثالث عنوانه « ســهرة الانطاع » يقص قصــة بعض الشباب الموسرين يجتمعون فى بيت أحدهم ويجلسون وهم ساهمون هادئون ، فيظنهم النديم قد اجتمعوا للتدبر فى شــأن الكون ، أو التفكير فى أمر الوطن ، أو التــأمل فى بدائع صناعة أوروبا وكيف ينقلونها الى مصر ، ولكنه يعرف انهم قد اجتمعوا من أجل تعاطى « الكيف » ، وهم يقولون : مالنا وللدنيا وما جرى فيها ، ومالنا وللصــحف وللتغرافات « برقيــات وكالات الأنبــاء » .. نحن والحمد لله فى غنى عظيم ، وقد خلف لنا آباؤنا من المال مالا تغنيه الأيام .

وقصــة أخرى فى العدد نفسه عن انقسام مستمعى الشــاعر الشعبى فى أحد المقاهى بين عنترية وزغبية ، وما كان من أحدهم ، وقد ختم الشاعر الشعبى انشاده فى احدى الليالى بوقوع عنترة فى الأسر ، فذهب هذا الرجل الى ابنه الذى يعرف القراءة ، وأيقظه من نومه ، وأمره أن يقرأ فى الكتاب حتى يخلص عنتر من الأسر ، والا مات كمدا فلما لم يطعــه الابن ، وحاول افهامه ان هــذا كله تخريف ، انهال عليه بعصاه حتى رض عظامه ..

وقصــة تالية عن رجــل غنى بنى بيتــا كبيرا ، وأثثه بأبدع الأثاث ، وجعل بين أثاثه مكتبة ضخمة ، ثم دعا بزائريه ليروا بيته ، فسأله أحدهم عن المكتبة وما تحويه ، فأجاب صــاحب البيت : لقــد دخلت بيت فلان وفلان فرأيت فى مضــيفة كل منهم خزانة كتب عليها ستارة خضراء وبجانبها منفضــة من الريش والخــادم

ينفضها كل يوم ويمسح زجاجها ، فعلمت ان هذا طراز جديد فى بناء البيوت وتأثيثها .

وهكذا صدرت التنكيت والتبكيت .. صحيفة هازلة خفيفة الظل ، وان كانت لا تتناول من الأمور آلا ما يؤلم ويحز فى النفس ، وذلك هو طابع المصرية المتغلغل فى ثناياها ، الطابع الذى آدركه النديم وهو يتصعلك فى بقاع الوطن ، ويتنقل بين مدنه وقراه ، لقد أدرك ان المصرى يحب النوادر ، ويهوى أن يتكلم بالامثال ، وكثيرا ما يميل الى السخرية من نفسه ، ولقد ابتكر فى صحيفته شخصيات من الكاريكاتير المكتوب ، منها شخصية « معيط » الفلاح المصرى الساذج السليم الطبع ، وشخصيات أخرى كاريكاتورية مثل « ست الدار » و « مسعودة » وغيرها . فأثرى بذلك أسلوبه وخياله القصصى الوثاب .

بلغ توزيع العدد الأول من التنكيت والتبكيت ثلاثة آلاف نسخة ، هى جملة ما طبعه منها ، وما لبثت أن اصطدمت مع صحف الاتجاه المضاد ، كصحيفة المحروسة وغيرها ، ثم كشفت عن وجهها الثورى ، لا الانتقادى فحسب ، بعد أن تسارعت الاحداث ، ووصل المد الثورى الى غايته ومداه .

أصبح النديم ثوريا قبل أن يلتقى بالعرابيين ، **فقد عبر وهو فى الاسكندرية** ، يصدر صحيفته « التنكيت والتبكيت » عن بوادر التمرد عند المدنيين بل لعله فى بعض الاحيان يجاوز العرابيين ويفوقهم وعيا فى ادراكه لابعاد المشكلة المصرية ، فنحن نراه يتحدث عن علاقة الغنى بالفقير والمالك بالفلاح بغض النظر عن كون هذا الغنى أو المالك تركيا أو مصريا ، فى الوقت الذى كان العرابيون فيه يتحالفون مع سادة الاقطاع المصرى الناشىء ، ورئيسهم البارز محمد سلطان .

يقول مخاطبا الأغنياء :

« تعال فانظر الى سلم رفعتك ومعدن حياتك ونبع ثروتك ، أخيك ــ استغفر الله ــ خادمك الفلاح .. انظر الى ثوبه المهلهل ولبدته التى لاتستر يافوخه ، ورغيفه الذى لاتكسره قوتك ومشه الذى تعاف النظر اليه ، وأرقبه وهو يسقى الزرع والطين الى فخذيه والشمس تشوى وجهه وجسمه ، يقطع يومه فى عذاب وعمل .. وهو صاحب الفضل عليك وانت لا تنظره الا بعين المقت ولا تعامله الا بيد الاهانة ولسان السب ..

وفى أحد أعداد سبتمبر عام ١٨٨١ من التنكيت والتبكيت يتخيل النديم حوارا بينه وبين أحد تلاميذه حول الحكم النيابى ، والمناقشات دائرة حول الدستور الجديد ، وننقل هنا لمحات من هذا الحوار .

التلميذ : وهل يوجد فى وطننا من فيه أهلية لذلك « لتمثيل الأمة فى المجلس النيابى » غير الأغنياء .

النديم : لا يخفاك ان الوطن فيه الذكى والبليد والغنى والفقير ، فان كان الانتخاب مقصورا على الأغنياء دون الأذكياء كان مجلس النواب وبالا على الشعب والوطن .

التلميذ : من من أين يأتى الوبال ، وهم من أهل الوطن الحائزين للرتب العالية ، وهم أدرى بحال الوطن وصالح المواطنين .

النديم : لا يخفاك أن ابن الغنى مولع بالاستبداد والاستعباد ، فهو يميل الى استخدام الفقراء بلا مقابل ، وضرب الضعفاء من غير أن يعارض أو يحاكم ، على أن أباه اذا كان من حكام البلاد فانه أدرك الثروة بنهب الفلاح وظلمه ؛ فوجود مثله فى مجلس النواب علة لزيادة هلاك الشعب ، فيشرعون من القوانين ما يضمن مصالحهم ليضعوا بذلك حدة أذهان الفقراء ويحبسوا الثروة لانفسهم .

التلميذ : واذا كان من أولاد الاتراك الذين تولوا مناصب الرئاسات فى الدولة .

النديم : لا تحكم على الرؤساء الأتراك الا بعد معرفة أسباب ثروتهم ، فان كانت بجدهم واجتهادهم كانوا أحرص الناس على حفظ الهيئة الاجتماعية ، وان كانت بطريق الظلم والنهب والرشوة كانوا أشد ضررا لحبهم الظلم الذى صيرهم فى هـذه الثروة بعد ان كانوا لا يملكون قوت يومهم ، ومن هذا القسم من لم ير الريف ولا يعرفه فكيف يكون نائبا عنه .

وقد يكون منهم كثير من أهل الخبرة والدراية ولـكن حبهم لذاتهم يعطل كثيرا من النعمة ، فان وجدوا فى مجلس النواب ولم يكن معهم أحد من النبهاء الاذكياء من أهل البلاد كان نواب هـذا المجلس عبارة عن لعبة يديرونها كيف شاءوا ، فاذا تشـكل هـذا المجلس من هذين القسمين «الاقطاعيين المصريين والحكام الاتراك» جعلتكم الدول رواية تياترية يشخصونهـا فى المحافل ليضحكوا على أهلها .

كل هذا اذا كان المجلس مطلق الحرية فى أفكاره لا يعارضـه أحد فى المصلحة ولا يلومه بشىء لم يقر عليه ، أما اذا كان مقيدا بما يصدر اليه من الوزراء ، فلا تسأل عن أعضائه وأهله فانهم صورة وهمية لا حقيقة لها ولا أثر .

التلميذ : وهل يحتمل الشعب اطلاق حرية الافكار قبـل أن يتدربوا على أعمال المجلس واستخدام تلك الحرية .

النديم : نعم .. يحملونها ويحفظونها ويسيرون بها ...

هذه لمحات من هذا الحوار الذكى ، نستطيع أن نرى فيهـا مهادها الفكرى أو نقطة انطلاقها ، فهى تنطلق أساسا من قانون لم تعرفه الانسانية الا حديثا فى مسيرة تفكيرها الاقتصـادى ، هـذا القانون هو أن الوضع الاقتصادى لبلد ما .. هو فى الحق تركيبه أو بناؤه الاساسى أو التحتى ، وليست القوانين والتشريعات والثقافة بعد ذلك الا تركيبات فوقية تخضـع لهـذا التركيب الاسـاسى .

فالنديم يحدثنا أن هؤلاء الأغنياء والاقطاعيين سيضعون من القوانين ما يكرس وجودهم اذا انفردوا بسلطة التشريع والتدبير للامة . ولا نريد أن نقول ان النديم قد عرف هذا من خلال قراءته ، ولكنه عرفه بلا شك من خلال نظره في أمور بلده . ولعله عندئذ كان يرى ثورة الاعيان على قانون المقابلة الذى يتعرض لاموالهم وثرواتهم .

والنديم يحدثنا عن ضرورة الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ولا يرى ضمانا لفاعلية المجلس الجديد الا ابعاد سيطرة الوزراة عليه ، فان سيطرت الوزارة عليه فتلك هى المهزلة المضحكة أو الرواية التياترية التى سيضحك لها ومنها كل من يريد أن يضحك فى هذا الكون .

وهو أيضا يرى اننا يجب ألا نتذرع بالجهل السائد لكى نحرم مواطنينا من حق الانتخاب والنظر فى أمور بلادهم ، فمنهم الذكى والمستنير ، وكأنه يشير بذلك الى وجود « طليعة » أو « صفوة » من أبناء المصريين ، لم تجمع المال وتحز الثراء ، ولكنها جمعت أطرافا من العلم والتجربة ، ومن حقها عندئذ أن تتصدى لتمثيل مواطنيها .

وكأنه أيضا يقول لنا ان علاج أخطاء الديموقراطية هو دعم الديموقراطية والمزيد منها ، وان التجربة تكشف دائما عن المواهب القادرة حين يقول فى ختام هذا الحوار :

اعلم يا ولدى ان الشىء فى أوله لا يجىء على صورته الحسنة فى سائر الجهات ، بل لا بد من النقض والابرام والخطأ والتصويب والتغيير والتبديل حتى تتقدم الأفكار وتتحسن الأحوال .

هذا هو النديم ابان المعركة الدستورية التى سبقت الثورة : أما فى الثورة وما بعدها فقد كان لفكره شأن .. أى شأن .

- ٣ -

واشتعلت نار الثورة ، سرت فى أول الأمر متباطئة هادئة ، ثم

ما لبثت أن ملأت الجو لهبا ودخانا ، وعرف النديم مكانه فيها ، فهو اللاعب الماهر بأعصاب الجماهير وخيالها ، لقد نقل النديم الخطابة من ساحة المسجد كما عرفتها مصر فى عصور المماليك والعثمانيين الى ساحة الحياة ، وبث بذلك تقليد الزعيم الخطيب الذى سنجده عند مصطفى كامل وسعد زغلول ، والذى سيتسع مداه حتى نجده لدى رجال الاحزاب السياسية وزعماء الطلبة فى عهد طلب الاستقلال . وكأنه كان حين بعث هذا التقليد يستهدى بسير زعماء الثورة الفرنسية بفصاحتهم المتدفقة ، وولعهم بطرائف الكلام ، أو يسير خطباء العرب المبرزين فى عهد النهضة الاسلامية .

وقد تكون الخطابة بطبيعتها غير صالحة لبث الأفكار المدروسة والحجج المرتبة ، فالخطابة اثارة وتهيج قبل أى شىء ، والخطيب يخاطب الوجدان الجماعى لمستمعيه ، وما ذلك شأن الصحفى أو الكاتب ، فالصحفى يصل الى قارئه حين ينفرد القارىء بنفسه ، وهو لذلك مطالب بأن يحكم العقل والمنطق فيما يقول . وكذلك كانت صحيفة « الطائف » حين أصدرها النديم ابان الثورة العرابية ، فهو يعلننا فى عددها الأول أن زمن « التنكيت » و « التبكيت » قد انقضى ، وأن على الأمة أن تواجه مشكلاتها بوافر من الفكر والرأى ، ونرى النديم فى أعداد « الطائف » يثير عديدا من المشكلات الاجتماعية ، كمشكلة تأخر الصناعة فى مصر ، وانعدام الشركات المصرية ، واتجاه رأس المال المصرى الى الزراعة واقتناء الاطيان ، وبقايا الرقيق فى مصر وحقهم فى التحرر ، وسيطرة الموظفين الاجانب على الادارة المصرية . كل تلك وجوه متعددة من المشكلة الكبرى ، وهى المشكلة الوطنية ، التى لخصتها الثورة العرابية فى شعارها « مصر للمصريين » . وفى طلبها للدستور وحق الشعب فى تقرير أموره ، ورفع الوصاية الاجنبية عن أمواله ومقدراته .

وانقضت ملحمة الثورة انقضاءها المؤسف ، وكانت أيامها

سجلا ضخما فيه صفحات من الشجاعة الرائعة والخيانة الهابطة وسوء التدبير المرير ، وقرر عرابى الاستسلام ، فلجأ الى المجلس العرفى الذى كان قد انشأه بالقاهرة من وكلاء الوزارات لحكم البلاد فى أثناء غيبته وغيبة الخديو ، فنصحه المجلس بكتابة عريضة اعتذار توجه الى الخديو فى الاسكندرية ، وأوكل الى عبد الله النديم أمر صياغة العريضة فكتبها متجنبا الاعتراف فيها بجريمة عرابى فى حق الوطن كما أراد المجلس ، بل لقد ألقى اللوم كله على المحتل الانجليزى الدخيل ، قائلا لاعضاء المجلس « لقد فعلنا ما وجب » .

ولم يوافق المجلس على الصيغة التى كتبها النديم ، وأملى بطرس غالى وكيل وزارة الحقانية ، ورئيس الوزراء فيما بعد عريضة أخرى ، يعترف فيها عرابى بالعصيان ، ويستدر فيها عطف الخديو ورحمته ويلتمس العفو عنه وعن زملائه .

ومما يذكر أن النديم حين كان فى مختبئه ، كانت تصله أنباء الخلاف بين زعماء الثورة ، وهم يتبادلون اللوم والتقريع فى منفاهم الاليم ، ويلقى كل منهم بالوزر على كاهل صاحبه ، حتى لقد بلغ بهم الامر الى حد التخاصم والمنابذة ، وكان النديم يسمع أنباء ذلك ، فيدمى فؤاده ، وتنفطر نفسه حزنا على هؤلاء الصحبة من الرجال ، الذين فتح لهم التاريخ بابه كأبطال مأساويين ، كانت هزيمتهم لانهم واجهوا قوى أكبر من طاقتهم ، ولكنهم يوشكون أن يوصدوا باب التاريخ أمام أسمائهم الرنانة بهذا اللغو الأجوف الاليم .

كان النديم يكتب رسائله لعرابى فى منفاه ويرسلها من مخبئه تحت أسماء مستعارة ، يوصيه فيها بأن يستعد للجولة الثانية ، حتى كأنه كان يتمنى أن يعود عرابى ليستأنف ما بدأ ، وقد خلع عن نفسه رداء الهزيمة ، أنه يقول له :

« فأمامك مستقبل انت عصامه يجمع فريقا أنت أمامه ، وقد تطاولت الاعناق بعظيم الاشتياق الى ذلك الميقات ، وكل ما هو آت آت » .

ويكتب له باعثا الشجاعة فى نفسه ، مطمئنا اياه على الروح الوطنية فى الشعب :

« ان حال الاحرار بعد النفي والاضرار ، قد فتح الله أبصارهم فتبصروا ، وصفى بصائرهم فتنوروا وسقاهم شراب المحبة فائتلفوا ، وهداهم الصراط المستقيم فما اختلفوا ، واذا قيل للواحد منهم : هذا عرابى المشرب ، فرح كأنه قد فتح له مطلب ، واذا أتى منك كتاب الى بعض الاحباب ، دار به على الاخوان وهو فرحان ، فانت فى مصر وان كان جسمك فى سيلان » .

أما عن الخلاف بين الزعماء فهو يكتب اليهم فى منفاهم خطابا نراه آية فى فهم السياسة وادراك مراميها ، كما هو دليل على تقديره لروح التاريخ ومنهجه حين يسجل الحقائق ويقيم أقدار الرجال .

انه يبدأ خطابه بالآية القرآنية « الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون » .. فهذا الخلاف بينهم اذن ، لون من الامتحان لشجاعتهم وبطولتهم ، وهو فى فاتحة خطابه يستثير حميتهم جميعا بتعداد مآثرهم ومكانتهم ، فمحمود سامى البارودى ، هو محمود العواقب سامى المراتب وعلى فهمى هو عالى الشأن محب الجنان ، ومحمود فهمي هو محمود السيرة بالهمة الكبيرة ، ويعقوب سامى هو يعقوب الامل رجل العمل ، وعبد العال حلمي هو عبد العال واحد الرجال .. وهكذا ، حتى يقول « فاذا لم تكن عهودكم وثيقة ، ورابطة جمعكم أنيقة ، وعدتم الى الديار على التباعد والنفار ، ساءت بكم الظنون . ومالت عنكم القلوب والعيون . وصرتم عرضة للدسائس ، ومرجعا لاهل الخسائس ، وذكركم المؤرخون بالنقائص ، وجردوكم من الفضل والخصائص ، وانكرت أوربا دعوتكم الوطنية وتبجح عدوكم بنسبة الهمجية ، وأعيذكم بكل آية من وصولكم لهذه الغاية ، فائتلفوا قبل ، واقتلوا الضغائن بالعتاب » .

الأستاذ ...

وانقضت أيام الهرب والتخفى والمنفى ، وكانت مهمة النديم بعد عودته فى عام ١٨٩٢ أشق وأصعب، لقد كانت روح الاستسلام تخيم على الأمة ، وكان « كرومر » يبسط ظله على كل مظاهر الحياة المصرية ، ولقد بدأ النديم عندئذ فى اصدار جريدته « الاستاذ » محددا هدفه بشكل واضح ، وهو «اصلاح ما فسد من أخلاقنا» . والأمم عادة حين تتردى في هاوية اليأس تنزع أخلاقها وتماسكها الى الانحلال ، ولقد عرفت مصر فى هذه الفترة اقبالا واضحا على متع الحياة الصغيرة ، ونزعة مسرفة الى اللامبالاة والفردية ، وها نرى النديم يحاول أن يبث فى هذا الجسد الخامد نوعا من التماسك ، فيحدث الناس عن التعليم ونشره ، وعن الصناعة والاستعداد لها ، وعن النساء وتحريرهن من الجهل ، ولكنه يعنى قبل أى شيء باحياء ما نسميه بالتراث القومى للامة ، المتمثل فى لغتها ودينها ، فيدافع عن اللغة العربية فى وجه تيار نشر الانجليزية فى الحياة والمدارس ، ويشيد بالدين الاسلامى كأساس من أسس الكيان الوطنى المصرى .

كانت اللهجة هادئة ، اذا هاجم النديم الاستعمار هاجمه دون تحديد واذا تحدث عن الاحتلال تحدث عن احتلال الغرب للشرق دون تفصيل ، وظلت اللهجة هادئة ، حتى اصطدم النديم بصحف الاحتلال ، وعلى رأسها صحيفة المقطم ، تثار ثائرة وبدأ يقذف الحمم والصواعق .

الاقذار ..

وتاريخ هذه الصحف الاحتلالية هو بلا شك صفحة سوداء فى تاريخ سوء الفكر والمقصد ، فقد حاول الانجليز استغلال ظاهرة اقبال المصريين على الصحف ، فأنشأوا مجموعة من الصحف التى توالى مقاصدهم ، وكان من ابرزها صحيفة المقطم التى صدرت فى

عام ١٨٨٩ بعد الاحتلال بسبع سنوات ، ثم ظلت تعيش حتى اختنقت مع اختناق النفوذ الانجليزى فى مصر .

أصدر المقطم ثلاثة من الوافدين الى مصر هم فارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس، وهيأت لهم السلطة الانجليزية سابغ معونتها ، فأعدت للصحيفة مطبعة خاصة كانت تطبع المقطم، ثم تقوم بطيه فى طيات صغيرة يسهل حملها ، وبخاصة فى جيوب العمد ومشايخ البلاد ، كما طبعت منشورات الحكومة في هذه المطبعة بعشرة أمثال تكاليفها .

ولقد بلغ من تضليل المقطم أن توهم بعض العمد والاعيان أن الاشتراك فيها مجلبة لرضاء السلطة البريطانية ، وقد حدث ذات مرة أن صرح أحد المسئولين الانجليز كاذبا ان موعد الجلاء قريب ، فهبط توزيع المقطم مائة وعشرين اشتراكا ، ولم تكن المقطم وحدها فى هذا المجال ، بل ظاهرتها صحف أخرى من الوافدين ، اذ أصدر أرمنى يدعى « الكسان صرافيان » جريدة سماها الزمان ، وأصدر « الياس زاخورة » صحيفة سماها مرآة الشرق ، كما أصدر آخر يدعى روفائيل مشاقة صحيفة دعاها « الاتحاد المصرى » .

تكتب المقطم فى ابريل عام ١٨٩٠ ، مهاجمة المصريين ، قائلة :

« ثم ما هو هذا الاستقلال الذى يبكونه ، والحرية التى يندبونها ، ففى زمان أى الاباء والاجداد تمتعوا باستقلال وحرية حرموها الآن ، ومتى كان زمام البلاد فى قبضة يدهم وسلب منهم، وما ضرهم اذا انفردت بالنفوذ دولة واحدة بينهم لا سبع عشرة دولة أجنبية ، وأى خسارة خسروها بتقليد رجال من الانجليز وظائف كان يتقلدها غيرهم من سائر الاجانب » ..

وتمضى المقطم فى حملتها الضارية ، فتكتب أن على المصريين أن يكفوا عن طلب الاستقلال ، فتأنس السلطة البريطانية الى هدوئهم وطاعتهم ، فتعطيهم عندئذ بعض مطالبهم .

كانت هذه هى الحال عندما عاد النديم الى الصحافة ، اذ كانت صحف الوافدين قد استشرى ضررها ، وتنوعت وسائل تأثيرها على الرأى العام بين صحف سياسية ومجلات تدعى أنها مجلات أدبية أو علمية ، وتدس سمومها فى الكيان المصرى القلق المنهك .

يحدثنا سلامة موسى فى كتابه « الصحافة حرفة ورسالة » عن هذه الفترة ، وقد أدرك أواخرها ، فيقول :

« وكان عارا علينا أن يوكل تكوين الرأى العام المصرى الى أقلام غير مصرية ، غريبة عنا فى المزاج ، لا يشغل قلوب أصحابها ما يشغل قلوبنا من أمانى وآمال ، وكان علينا جميعا أن نقرأ كل يوم ما يكتبه لنا الصحفيون غير المصريين فيما يجب ومالا يجب أن نتبعه فى سياسة بلادنا من الخطط ، وكانت الصحف والمجلات غير المصرية تنساب بين العامة كأنها الحياة السامة ، وبها هذر وهذيان وسخف لتسميم العامة وافساد عقولها » .

الاستقلال .. الاستقلال

وضد هذه الصحف كانت معركة النديم الاخيرة فى مصر : وحين اشتدت النبرة تفتح النديم عن ثوريته مرة ثانية ، فأخذت كلمة « الاستقلال » ترد على قلمه كعاصم لمصر من هذا التخريب المتعمد .

« أى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم .. أصرنا أقل درجة من فعلة الانجليز والفزالين الذين تعصبوا لحقوقهم وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم .

فيا بنى مصر .. لم تبق قطعة من الارض الا والجرائد تنقل اليكم أخبارها ، وتروى لكم أعمالها فى طلب استقلالها .. ليعد المسلم منكم الى أخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية ، وليرجع الاثنان الى

القبطى والاسرائيلى « اليهودى » تأييدا للجامعة الوطنية ، وليكن المجموع رجلا واحـدا يسعى خلف شيء واحـد .. هو حفظ مصر للمصريين » .

ويسمى النديم صحف الاحتلال جرائد الاجراء ، ويدعو ما ينشرونه بالقاذورات ، ويسترسل فى الغيرة الوطنية ، حتى يعوذ الى ذكر كل الأمجاد السالفة ، وتتطلع الأمة الى عهد جديد ، ولكن الاستاذ لا تعيش طويلا اذ تضطر للاحتجاب بعد بضعة شهور ، ثم لا يلبث صاحبها أن ينفى من جديد .

ولقد كان هذا الدور الجديد للنديم من أعظم ادواره وأجلها رغم انه لم يستمر زمنا طويلا ؛ ولكن لا شك أن الاستاذ وبعض الصحف الوطنية الاخرى قد استطاعت أن تقف وقفة صلبة فى وجه هذا الطوفان العارم ، وسنجد احصاء بتوزيع الصحف فى عام ١٨٩٣ يحدثنا عن شيوع « الأستاذ » ومكانتها فى ذلك الزمان .

المؤيد ١٢٠٠ نسخة	وطنية
الهلال ٧٤٠ نسخة	احتلالية
المحروسة ٨٠٠ نسخة	احتلالية
المقطم ١٤٥٥ نسخة	احتلالية
الأستاذ ٢٢٨٨ نسخة	وطنية
الأهرام ٢٧٧٥ نسخة	محايدة مع ميول فرنسية
المقتطف ١٣٠٠ نسخة	احتلالية

ولقد ذكرت المقطم خبر نفى النديم وتعطيل الاستاذ قبل حدوثهما ، تهديدا له ، ولكن النديم لم يهن . حتى أتى الخبر اليقين ، فاذا به على ظهر مركب الى يافا للمرة الثانية ، ومنها الى الاستانة .

وفى الاستانة مات النديم ، لتطوى سيرة حياة عاطرة . وسيرة فكر كريم العطاء .

٦

فكر الأعيان



- (٧٠٠) جارية عند اسماعيل المفتش !
- حزب الأحرار يقتل الحرية !
- مديرو الأقاليم لا يعرفون القراءة والكتابة !

حين أسلم عرابى سيفه ، ووضع كتاب الثورة أقلامهم ، خلا المكان للفكر الاصلاحى ، وانسحب الفكر الثورى الى المنفى والغربة أو التشتت والتفرق فى البـلاد .

ونقصد بالفكر الاصلاحى ، هذا اللون من الفكر الذى يواجه القضايا الملحة والمواقف الحاسمة ، فيؤثر أن يتناولها بالدرس حتى يفصل أجزاءها ، ويرتب الحاسم وغير الحاسم منها ، ثم يتنـاول جانبا من جوانبها ، يجده أقرب الى العلاج ، وأجدر بالحل ، فيركز فيه معركته ، مؤجلا غيرها من أوجه القضية أو الموقف الى أمد قريب من بعيد .. انه فكر القضايا الجزئية والحلول القريبة .. فكر التوسط والمهادنة والتأجيل .

ينمو الفـكر الاصـلاحى فى أوقات الانحسار والانهزام ، ويتبناه « العقلاء » من أبناء الأمة ، ولديهم عندئذ حجتهم المقنعـة الجاهزة .. انهم يقولون : لقد جربت الأمة الانتفاض الشـعبى ، والمطالبة بالحلول الكاملة .. بالعدالة الكاملة أو الحق الكامل .. فماذا وجـدت .. ويمضون فى حجتهم ليكشفوا أن الأمور زادت سوءا وان ما أريد بالأمة من خير قد انقلب الى شر . وهم عندئذ لا يطرحون قضية تجديد الفكر الثورى وتجدد الثورة لكى يداووا به أوجه القصور فى مسيرة الأمة ، بل يؤثرون أن يقفزوا فوق بعض مواطن الواقع الى مواقع أخرى يرونها أجدر بالاصلاح والتقويم .

وحين دخل الاحتلال الانجليزى مصر ، أورق هذا الفكر ونما وازدهر . واتخذ له معارك جانبية ، مثل اصلاح التعليم فى المدارس المدنية والأزهر ، وتحرير المرأة ، وانشـاء المصارف المصرية ، وحماية ملكية الأرض الزراعية للمصريين ، وتعميم الجمعيـات

التعاونية على أسس لبرالية ، ونشر الوعى العلمى ، وغير ذلك من أوجه الاصلاح ، ولكنهم لم يتناولوا القضايا الرئيسية ، مثل قضية الاحتلال الناشب أظفاره فى البلاد ، أو الدستور المفتقد المنظم لعلاقة الحـاكم والمحـكوم ..

ولقد نشأ الفكر الاصلاحى المصرى فى أحضان طبقة الأعيان المصريين ، وحول مراكز تجمعها .. ولقـد مرت طبقة الأعيان المصريين بمرحلتين . المرحلة الأولى مرحلة النشأة حين تجمعت فى الحزب الوطنى الأول بحلوان فى عام ١٨٨١ ، وشارك الجيش فى رفع شعار « مصر للمصريين » . وكانت تقصد عندئذ ــ كما أسلفنا ــ أن يؤول اليها حكم مصر فى الوظائف الكبـرى دون الخديوية ورئاسة الوزراء، وان تجلى أبناء الترك والشركس والالبان عن هذه الوظائف . وكانت هذه الطبقة عندئذ لا تحظى بقسط من التعليم ، وان اتقنت بعض المنـاورة السياسية والبرلمانية .. وكان عمرها عشرين من السنين على الأكثر ، انتقل فيـه أفرادها من منـاصب العمد لقراهم الصغيرة الى منـاصب مديرى الاقاليم ومفتشيها ، ومن ملـكية بضـعة أفدنة الى ملكية المئـات والآلاف منهـا .

بدأت فئة الأعيان فى الظهور فى عهد سـعيد ، ولكن حـكم اسماعيل هو الذى أتاح لها ماوصلت اليه من ثراء ونفوذ ، ومن الغريب أن أول من فتح لها السبيل هو اسماعيل صديق المفتش أخو اسماعيل فى الرضاع ، وعونه الأول على الطغيان ثم كبش فدائه حين اذلهمت عليه الأمور ، اذ قتله اسماعيل وأخفى جثته فى سراياه بالزمالك التى هى فندق عمر الخيام الآن .

كان اسماعيل صديق من أصـل مصرى ، أكرمه الله بأن جعل أمه مرضعة لاسماعيل ، وحين صار اسماعيل حاكما على مصر صار مفتشا لعموم الأقاليم ، فاستغل هذه المكانة فى الاثراء والكسب،

ويحـدثنا أمين باشا سامى فى كتابه تقويم النيل « **ان عقـارات المفتش عند « نفيه » كانت نيفا وثلاثين ألف فدان ، وثلاثة قصور فى القاهرة وقصرا على ضفاف المحمودية وجواهر قيمتها ستمائة ألف جنيه انجليزى وأسهما وسندات بنصف مليون من الجنيهات وأخيرا سبعمائة جارية شركسية بيضاء وخمرية مسكرة وسمراء فاتنة وحبشية ذات عيون بقرية وبرونزية موشـومة ذات نهود سفرجلية وسودانية فحماء متقدة الدم الهائج » ..**

وباع المفتش الوظائف لابناء وطنه من المصريين - فكان ثمن وظيفة المدير من الفين الى ثلاثة آلاف جنيه ، وثمن وظيفة وكيل المديرية من ألف الى ألف وخمسمائة جنيه ، وثمن وظيفة ناظر قسم من خمسمائة الى سبعمائة جنيه ، وتكالب الأعيـان على شراء الوظائف ، وبعد أن كان اسماعيل قد قرر فى أمر عال أن تـكون النسبة فى الوظائف الادارية العالية الثلثين للترك والثلث من « أولاد العرب » أو المصريين ، وصلت النسبة بعد بضعة أعـوام الى أن صـار معظم كبار الموظفين من المصريين ، حتى قال اسماعيل باشا بعد انصراف كبار الموظفين من التشريفة فى عام ١٨٦٩ أنه مسرور لمشاهدة معظم المديرين من ذوى اللون الاسمر البحت .

وسقط اسماعيل المفتش عام ١٨٧٦ ، وانحسر النفوذ المصرى قليلا ، ورفع النفوذ التركى رأسه ، ولكن طبقة الأعيان كانت قد تكونت وتآزرت على كل حال ، ويحدثنا أمين سامى أيضا أن بعض هؤلاء المديرين والعمد ونظار الأقسام المصريين كانوا لا يجيدون القراءة والكتابة . ولكنهم كانوا قد كونوا ثروات طائلة بالنسـبة لمواطنيهم ، فبدأوا يتطلعون الى السلطة ، وراهنوا على جواد الجيش والثورة العرابية ، ولكنهم مالبثوا أن توقفوا فى منتصف الطريق ، وسارع معظمهم الى الانضمام للخديو ، وكان زعيمهم محمد سلطان القائد الأول للحزب الوطنى ومفتش الوجه القبلى ورئيس مجلس

النواب هو أول الضاربين للثورة ، حتى قال عنه محمد عبده في تاريخه ، مبتدئا حديثه بهذه اللهجة الساخرة .

((هذا الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة فى البلاد ، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهيبها وعم جميع الانحاء ، ثم هرب من طريقها عندما خاف أن يلذعه لسان لهيبها .. جاء فى آخر الأمر نائبا عن الحضرة الخديوية فى حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم . ونال المكافأة من الجناب العالى بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها)) .

كان محمد سلطان اذن هو الممثل الأول للطبقة المذكورة فى ابان نشوئها، يوم كان كثير من أفرادها لايعرفون القراءة والكتابة، وكان فكر هذه الطبقة انتهازيا يطمح الى تولى المناصب سواء كان ذلك بتقديم الرشوة الى اسماعيل المفتش الآب الروحى للطبقة ، أو بالمساومة على الحركة الوطنيـة . ثم خلف هؤلاء السادة خلف ، دخلوا المدارس ، وحذقوا الوانا من الجدل والكلام ، وسافر بعضهم الى أوربا ، فنال حظا من المعرفة والتفتح ، ثم عادوا الى مصر ليشغلوا جملة من الوظائف العالية فى نطاق السيطرة الانجليزية . فهم يرون أنفسهم بمجد الثراء ومجد الوظيفة اسمى مقاما من غيرهم من المصريين ، ويطمحون الى مصـاولة الترك ، ولكنهم لتحضرهم وعلمهم أكثر مقدرة على الابانة عن أنفسهم من آبائهم واسلافهم .

هذا الجيل من الأعيان هو الذى أنشأ حزب الأمة وجريدته فى عام ١٩٠٧ ، وكان ألمع ممثليه أحمد لطفى السيد الذى عرف فيما بعد بأستاذ الجيل . وكان صاحب المزاج الهادىء ، والمفكر المتأمل الشيخ محمد عبده هو أباهم الروحى ، حتى قال كرومر عنهم فى تقريره السنوى عام ١٩٠٦ ، وهم لم يعلنوا عن أنفسهم

بعد ، فى مجال المقارنة بينهم وبين اتباع مصطفى كامل أو الحزب الوطنى .

((فئة صغيرة من المصريين الذين لم يسمع غير القليل عنهم، فرجال هذه الفئة يستحقون ذلك اللقب بقدر ما يستحقه الذين يختلفون عنهم فى آرائهم وافعالهم ، وهم رجال الحزب الذين أسميهم حبا فى الاختصار اتباع المرحوم المفتى السابق الشيخ محمد عبده)) .

ولا نجد فى بيان افتتاحية العدد الأول من الجريدة أى ذكر للاستقلال أو حقوق الأمة الشرعية ، فى الوقت الذى كان فيه مصطفى كامل ينشد خطبه الشاعرية الملتاعة ، ويجعل كلمتى مصر والاستقلال واسطة العقد فيها ، بل تختفى الجريدة وراء تعبيرات اصلاحية غامضة مثل الاعتدال الصريح .. و ((ارشاد الأمة المصرية الى أسباب الرقى الصحيح والحض على الأخذ بها، واخلاص النصح للحكومة والأمة بتبين ما هو خير وأولى ، ثم تنصح بتولية الحكم لجماعة أولى الرأى)) وهم الذين نبهوا ذكرا بالمنصب أو العلم أو الفضل ..

كانت آراء لطفى السيد الفكرية تقوم على ثلاثة محاور ، أولها ايمانه بالتطور ايمانا أقرب الى اليقين الدينى فهو يؤمن بأن اليوم خير من الامس ، وان غدا سيكون أفضل من اليوم ، وتلك مقولة أولى اقتبستها من فلاسفة التطور الانجليز . وبخاصة ((سبنسر)) ولكنه لا يفكر كيف ان الانسان هو قائد التطور ، فنحن قد نؤمن بحتمية التطور فى البيولوجيا حين نؤمن أن الكائنات الحية تستبقى الأحسن أو الاقدر على الحياة ومجالدة الطبيعة . ولكن التطور الانسانى لابد لدفعه من الانسان الموجه له ، ومن تهيئة الظروف المعينة على التطور ، وقد انعكس ايمان لطفى السيد بالتطور فى نظرته الى الاستقلال ، فهو يرى ان دون الاستقلال عقبات يجب أن

تجتازها الأمة بتطور تدريجي ، فلا استقلال عنده بدون نشر التعليم واصلاح المعوج من عاداتنا ومعتقداتنا .. بل يجب أن نشرع فى هذه الخطوات ونتمها قبل أن نطمح الى الاستقلال .

والمحور الثانى .. من أفكار لطفى السيد هو كراهيته لاستعمال القوة في أى أمر من الأمور ، **فمن يظن أن استعمال القوة هو طريق الرقى فهذا طريق خطر السلوك عقيم النتيجة ، فان الأقلام مجمعة فى مصر على أن السلام هو الطريق الوحيد ..**

أما المحور الثالث .. فهو ايمانه بالمنفعة كفلسفة عملية ، فهو يرى ألا يشغل نفسه بأوهام الخيال والطموح ، أو بالغايات البعيدة الغائمة . بل يقيس الأمور بنفعها ، وتلك نزعة فى الفلسفةالانجليزية أيضا تقترب الى حد كبير من النزعة البراجماتية فى الفلسفة الأمريكية ، وكلتاهما فلسفتان ماديتان لا عقليتان ، تنبعان من ملاحظة الواقع دون طموح الى تغييره ..

ولعله قد طبق تلك الفلسفة أصدق تطبيق فى مقالته فى وداع كرومر ، اذ جعل جهده أن يحصى ما له وما عليه ، وانتهى بأن كرومر بمقياس بنى وطنه الانجليز ، مصلح وطنى غيور على مصالح وطنه ، وكان الأمر مضحكا أن يتحدث بهذه اللهجة ، فان القائد الانجليزى الذى احتل مصر كذلك كان بلا شك وطنيا غيورا فى نظر دهماء لندن وسادتها .. ولكن ماذا يفعل وقد شارك حزبه بقيادة «محمود باشا سليمان» فى وداع كرومر ، وسفح الدموع حزنا على فراقه الأليم !

ما موقفهم .. ؟

لم يكن لطفى السيد هو المفكر الوحيد فى حزب الأمة . ولم يكن حزب الأمة هو التجمع الوحيد لطبقة الاعيان ، فقد تجمعوا بعد ذلك فى حزب الاحرار الدستوريين ، الذى انتج جماعة من المفكرين ، منهم محمد حسين هيكل ، قريب لطفى السيد وتلميذه

الاثير ، ومنهم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر ومنهم طه حسين فى أيامه الأولى قبل انضمامه للوفد .

ولقد كان لطفى السيد أيضا ممن أسهموا فى انشاء الحزب الجديد ليقف فى مواجهة الوفد وازاءه ، وكأنه كان مقدرا على هذا الرجل أن يقف فى مواجهة التيارات الوطنية ، فهو ينشىء حزب الأمة فى مواجهة مصطفى كامل وحزبه الوطنى ، وينضم الى الأحرار الدستوريين ويؤازرهم ليواجهوا شعبية سعد زغلول وزعامته ، ومما يذكره المؤرخون أن لطفى السيد ـ بهوايته اللغوية ـ كان غير راض عن اسم الحزب ، فهو يرى تسميته بالحريين الدستوريين ، لا الأحرار الدستوريين ، لأنه يرى أن كلمة « الحريين » هى الترجمة الأولى لكلمة « ليبرالى » أو المذهب « الليبرالى » .

كانت الليبرالية هى أوضح معالم فكر لطفى السيد وتلاميذه فى المرحلة التالية ، مرحلة طبقة الاعيان المثقفة فى آخر أيامها . ويلخصه لطفى السيد فى « **ألا يكون للحكومة سلطان الا على ما ولتها الضرورة اياه وهو ثلاث ولايات :ولاية البوليس وولاية القضاء ، وولاية الدفاع عن الوطن** » ، فهم يؤمنون اذن بقداسة الحرية الفردية ، ويقودهم هذا الايمان الى الايمان بضرورة الحكم النيابى والدستورى ، ولذلك فقد ولد فى أحضانهم أول دستور مصرى عام ١٩٢٣ .

ولكن هذا الايمان لم يبلغ بهم حد التضحية بمكانتهم الاسرية والمالية ، اذ كانوا يظنون أنفسهم سادة الأمة كما قال حسن باشا عبد الرازق فى خطاب تشكيل حزب الأمة ، فاذا بالأمة لا تنتخبهم لولايتها ، وانقلب هؤلاء الحريون أو الأحرار سيفا مصلتا على الحرية التى نادوا بها وجعلوها شعارا لهم ، فقال عبد العزيز فهمى أحد اقطابهم عن الدستور الذى شارك فى صياغته أنه ثوب فضفاض

لا يصلح لمصر ، وحكم محمد محمود البلاد بلا دستور وأطلق على نفسه اسم اليد الحديدية ، وخرج من بين صفوف الدستوريين حليفهم اسماعيل صدقى ، واستوزر لطفى السيد لمحمد محمود واسماعيل صدقى كلاهما ، وهما يحكمان بلا دستور أو بتزييف الانتخابات وضرب الشعب «

لقد كان سعد زغلول أعلم بالدستوريين من أنفسهم ، فقد كان بعضهم معه فى مفاوضاته مع « ملنر » بلندن عام ١٩٢١ ، ثم انشقوا عنه . واقنعوا أحد أعضاء الحزب الوطنى القدامى بالانضمام اليهم سترا لوجودهم ، فكتب زغلول الى أحد خلصائه بالقاهرة :

« لابد أن تعلموا أن اسم «مكباتى بك» كان بين العائدين ، ولكنه لم يعد ، وانما كتبوا اسمه مع اسمائهم تفخيما لشأنهم ولكى يعتزوا باضافة لون آخر الى لونهم ، حتى لا يقال ان حزب الأمة عاد الى بداينه ، وانتهى الى غايته .. ان الله لا يصلح عمل المفسدين » ..

تقييم

ان أسوأ ما فى التوسط انه يقود الى التنازل ، والتنازل يقود الى المساومة ، ثم تعمى بعده العين عن الرؤية الصحيحة للأمور . وقد كانت هذه الطبقة من الأعيان بمدارسها الفكرية المختلفة داعية الى التوسط ، وكانت أجنحتها الفكرية بلا شك أسلم قصدا وأقوم نهجا من أجنحتها السياسية ، فلأجنحتها السياسية أخطاؤها التى تصل الى حد الانحدار الوطنى ، ولكن أجنحتها الفكرية قد خاضت كثيرا من المعارك الموفقة التى أسهمت فى تقدم الوطن ، مثل معركة التعليم واصلاحه التى خاضها لطفى السيد ومحمد عبده وسعد زغلول حين كان قريبا منهم ؛ ومثل معركة تحرير المرأة التى خاضها قاسم أمين ، اذ قرأ على محمد عبده ولطفى السيد فصولا من كتابه فى جنيف عام ١٨٩٧ قبل

أن ينشره على الناس ، وأمده محمد عبده بالحجج الدينية ، ومثل معركة بنك مصر التى خاضها طلعت حرب ، وكان من المساهمين الأول فى جريدة « الجريدة » حين اصدارها . فضلا عن دور محمد حسين هيكل فى الأدب وبخاصة بكتبه المتقدمة مثل « ثورة الأدب » « وتراجم شرقية وغربية » .

وقد كان وجود هؤلاء المفكرين يطرح سؤالا ويجيب عنه فى الوقت ذاته ، هذا السؤال هو هل تنهج مصر فى تقدمها النهج الثورى أو النهج الاصلاحى ، أما هؤلاء المفكرون فقد أثبتوا باجابتهم أن أقصى ما يستطيع أن يصل اليه النهج الاصلاحى هو استقلال مقيد ودستور هو ثوب فضفاض واقتصاد متخلف وفكر لا ينبع من الواقع ولكنه ينبع من التوفيق بين الفكر الأوروبى والطموح الشخصى لمن استعاروا هذا الفكر ..

٧

فكر الطلبة

• ممثل للطلبة في مجلس النواب !
• وزارة المعارف تنتقم من الطلبة !
• الفقر الفكرى فى الأحزاب المصرية !

يذكر الذاكرون أن سعد زغلول خصص مقعدا فى مجلس النواب الأول لمصر فى عام ١٩٢٤ للطلبة ، ورشح له أحد زعمائهم ، وظل الوفد يرشح هذا الزعيم الطلابى حتى بعد أن غدا شيخا عجوزا ، ويقدمه مندوبا عن الطلاب طوال سنوات الحكم الدستورى وحياة الوفد بهذا التصرف مجرد مرحب بدون الشباب فى الحركة الوطنية ، بل كان مسجلا لحقيقة هامة ، وهى أن الحركة الوطنية فى جانبها الثورى كانت تقوم على أكتاف الطلبة ، وتنبع من فكرهم .

وليس هذا غريبا فى المجتمعات التى تشيع فيها الأمية ، اذ يكون الطلبة هم الطليعة الواعية المتطلعة ، التى تكاد تتخلص فى الوقت ذاته من التدبير لهموم الحياة والخضوع لارتباطاتها ، فتتفرغ بكل ما فى نفوسها من حماسة وهمة لقضية الوطن ، وليس هذا غريبا فى المجتمعات التى لم يتشكل بناؤها الطبقى بعد ، فهى فى تخلق مستمر ، اذ تولد طبقة من أصلاب طبقة ، وينقضى وقت طويل قبل أن ترسى هذه الطبقة الجديدة مفاهيمها ومثلها العليا ..

ويقول بعض الدارسين ان نشوء الطلبة كفئة ثورية علامة مميزة فى المجتمعات التى لم تتقدم آليا وصناعيا بعد ، بحيث تتحدد المواقف الاجتماعية طبقا للعلاقة مع أدوات الانتاج ملكية لها أو خضوعا لوطأتها ، فمن يملكون أدوات الانتاج هم سادة المجتمع والمشرعون له وممثلوه وأهل الرأى فيه ، ومن يخضعون لها هم خدمه وعبيده ، ولكن ما نراه الآن فى أوروبا الغربية ، وهى قمة التقدم الصناعى فى العالم يوحى لنا بأن للطلبة دورا واضحا كطليعة ثورية سواء أكان المجتمع متقدما أم متخلفا ، والى هذا المعنى فطن « هربرت ماركيوز » أحد كبار فلاسفة عصرنا هذا ، حين أدرك أن الطبقة العاملة الصناعية فى المجتمعات المتقدمة جديرة بأن تنحاز الى القوى

الجامدة في المجتمع حين تعلو أجورها ، وتنظم ظروف حياتها ، فلا يظل عندئذ فى الجناح الثورى من المجتمع سوى الطلبة ..

ولا شك أن النظرة فى كفاح مصر الوطنى ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، تكشف لنا عن دور الطلبة وفكرهم ، بل تجعله مناظرا قويا لفكر الأعيان . ففي الوقت الذى كان فيه الأعيان والعقلاء يتجمعون ليحموا مصالحهم ويثبتوا وجودهم بين قوتى الاحتلال والقصر ، كان الطلبة يتجمعون أيضا تحت راية الوطنية ، ولا شك أن ممثلهم الأول كان هو مصطفى كامل فى الدور الأول من كفاحه الوطنى .

جمع مصطفى كامل — وهو طالب فى المدرسة الخديوية — سبعين من زملائه فى جمعية سماها « جمعية الصليبة الأدبية .. » ، وكانوا يجتمعون فى هذه الجمعية ليخطبوا ويلقوا القصائد ، وقد كان مصطفى كامل يحاول الشعر ، وكانت له صداقة عميقة بشاعر مصر الكبير أحمد شوقى ، وقد ظل مصطفى كامل ، حتى بعد تخرجه وتكوينه للحزب الوطنى ، حريصا على تجميع الطلبة حوله ، وكان المظهر الواضح لهذا التجمع هو تكوين نادى المدارس العليا فى عام ١٩٠٥ ، وسنجد فى هذا النادى جماعة ممن قدر لهم أن يؤدوا دورا فى تاريخ مصر ، وكانوا عندئذ مازالوا طلابا فى المدارس العليا .

ومن البديهى أن يكون الفكر الطلابى خطابيا حماسيا ، وكذلك كان فكر مصطفى كامل ، ولكنه بلا شك فكر قد صادف أوانه ، فقد كانت الأمة واقعة فى هوة اليأس ، ولابد عندئذ من الأناشيد أو الكلمات المنغمة لكى تستعيد ثقتها بنفسها ، ويكفى مصطفى فخرا أنه أعاد كلمات مثل : الوطنية والاستقلال والحرية ، الى ضمائر الناس وأذهانهم . كما أن مما يزكى دوره فى الحياة السياسية المصرية أن فكره كان قادرا على التطوروالحركة والاتساع طيلة حياته القصيرة ، بحيث بدأ حياته زعيما طلابيا ملتهب العاطفة

يلجأ للخيال والتشبيه والكلمات الضخمة ، وأنهاها مقتربا جد الاقتراب من الوعى الصحيح للأمور ، ومنظما موهوبا لحزب وجريدة ومدارس تنشر التعليم ، كما تلقن الوطنية .

وينتقل «مصطفى كامل» فى حركته السياسية خلال عشر سنوات من الاعتماد على الخديو أو على العثمانيين أو على الفرنسيين الى الاعتماد على مصر ذاتها ، كما تنتقل لهجته من مجرد الشاعرية الى محاولة التعمق فى الأمور ، والحديث باللهجة السياسنية المسئولة ، فبينما نراه يخطب فى عام ١٨٩٦ فى الاسكندرية قائلا فى صورة شعرية بليغة :

« ولكن ألا تحبون مصر ، التى خيم عليها الشقاء ، وحل بها البلاء وسبقتها الأمم وأصبحت تعد فى مصاف الشعوب القاصرة ، تناديكم وأنتم حولها : الا فانصرونى يا أعز البنين .. الا فارفعوا شأنى بين الأمم واجعلوا لى مكانا فسيحا بين الشعوب المتقدمة الحية .. أجل .. أجل .. تحبونها ويجب عليكم أن تحبوها وتحنوا عليها كما يحنو المرء على أمه الشفوق اذا اعتلت ويسعى الى خدمتها » .

نجد مصطفى كامل بعد السنوات العشر يخطب خطبة أخرى بالاسكندرية ، هى فى الواقع بيان سياسى واف مرتب ، يشرح فيه اتجاهه ، ويدفع عن نفسه اتهامات خصومه .

يقول ردا على أنصار المهادنة والحلول الوسط أو تيار حزب الأمة :

« يتوهم أنصار سياسة المغالطة .. انهم مهرة قادرون وسياسيون محنكون ، فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الانجليزية ويغلبوها بقوة الدهاء .. هم يقولون : لنؤجل طلب الاستقلال ولنطالب الانجليز بالاصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابى ونشر التعليم ، حتى اذا صرنا أصحاب الحول والطول فى البلاد .. قلنا لهم « انجلوا عنا » فلا يستطيعون الا أن ينجلوا خاضعين ممتثلين » .

اللهم انى أعترف بأنى لست من المهرة فى السياسة حتى أدبر مثل هذا التدبير •• وأصرح بأنه لم يخطر لى لحظة واحدة على بال بانى قادر على أن أصرع السياسة الانجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة ، كما انى مع عداوتى الأكيدة للاحتلال••لا أرى الانجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالا صغارا حتى تدخل عليهم هذه اللعبة المضحكة ••

ويناقش « مصطفى كامل » بعد ذلك حجج أنصار الاحتلال . الذين كانوا يزعمون أن الاحتلال قد نظم الرى والصرف والتعليم والصحة ، وهو يعتمد فى مناقشاته على الأرقام ليكشف زيف هؤلاء المزيفين ، ثم ينتقل للرد على حجج خصومه ، فيدافع عن حزبه معلنا استقلاله عن الولاء العثمانى وترحيبه بالعناصر غير المسلمة . ثم يقول فى عبارة قاطعة :

« اننا نعلن للملأ كله••أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء » •

بعد مصطفى :

لم يكن وراء الحزب الوطنى عند تشكيله ، مثل ما كان وراء حزب الأمة من المثقفين ذوى النزعة العصرية ، بل لعله استهوى كتاب النزعة العثمانية مثل «عبدالعزيز جاويش» وغيره ، وواجه الحزب بعد موت مصطفى ظروفا شاقة ، اذ تحالفت عليه قوى الاحتلال والسراى حتى استطاعت أن تخرج «محمد فريد» من مصر ، وحتى استطاعت أن تصوره حزبا حريصا على تفتيت وحدة الأمة ، أو خالقا لمناخ يساعد عليها على أقل تقدير ، وبخاصة بعد أن أصبح عبد العزيز جاويش هو أشيع كتابه ذكرا ، ولقد انصرف شبابه الجديد من بعد الى مسالك أخرى ، تتباين بين الارهاب الفردى كما نجد فى قتل «ابراهيم الوردانى» لبطرس غالى••أو الانضمام الى الأحزاب الأخرى. أو الانصراف بعد تخرجهم الى الوظائف العامة مع بقية كامنة فى

أنفسهم من النار القديمة المتقدة ، كما فعل مصطفى النحاس وحافظ عفيفى اللذان دخلا الوفد ممثلين للحزب الوطنى القديم ·

وعلى أيا حال ·· فلقد كان الحزب الوطنى فى سنواته الأولى ، هو حزب الشباب والطلبة ، والى هذا المعنى أشار الحوار الذى دار بين السير « ريجنالد وينجت » المندوب السامى البريطانى وأحـــد الأقطار الثلاثة الذين ذهبوا اليه غداة الهدنة فى عام ١٩١٩ للمطابـه بالاستقلال ·

قال «وينجت» ان على المصريين ألا يتعجلوا وأن يكونوا متبصرين فى سلوكهم ، لانه قبل الحرب كثيرا ماحصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطنى ، وكان ذلك بلا تعقل ولا روية فأخرت مصر ولم تنفعها ·

وأجابه « عبد العزيز فهمى » أحد الأقطاب الثلاثة : ان الحزب الوطنى كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد كانت تطلب الاستقلال وغاية الأمر أن طريقة الطلب التى سار عليها الحزب الوطنى ربما كان فيها ما يؤخذ عليها ، وذلك راجع الى طبيعة الشبان فى كل جهة ·

وتم نفى الأقطاب الثلاثة كما نعلم··ولم يكن يدور بخلد أحد منهم أن مصر ستتحرك عن بكرة أبيها احتجاجا على هذا النفى ، حتى لقد أصيب معظم أعضاء الوفد بالدهشة حين نمت اليهم أنباء ثورة مارس ١٩١٩ ، وحتى كان بعض أعضـــاء الوفد المقيمـين بمصر ينصحون الثائرين بالهدوء والحكمة · لقد كانت الثورة تفوق كل توقع من تصدوا لقيادتها ، ورغم أن الثورة أستشرت فى كل مكان من مصر ، الا أن من أيقظ خامدها ، وبعث روح مصر من سباتها · كانوا هم الطلبة ···

بدأت أحداث الثورة باضراب طلبة الحقوق فى ٩ مارس ١٩١٩، ثم انطلاقهم فى مظاهرة ضمت اليهم طلاب المدارس العليا الأخرى ،

وفى اليوم التالى انضم اليهم الأزهريون وطلاب المدارس الثانوية ..
ثم اشتعلت الثورة ..

ومنذ ذلك اليوم .. أصبح الطلبة قوة سياسية وظاهرة نجدها فى حركة جمع التوكيلات للوفد ، وفى نشاط الوفد السرى الذى كان ينظمه عبد الرحمن فهمى سكرتير الوفد ، سواء أكان اغتيالا أم ارهابا للخصوم من المصريين والأجانب ، ثم فى الاحتجاج على حكومات الأقليات والتظاهر ضدها حتى تسقط ، ولقد سقط من الطلبة عديد من الشهداء والمكافحين ، وتألقت منهم أسماء ذكية كان منها عبد الحكم الجراحى ، شهداء كوبرى عباس وغيرهم .

يحدثنا « فكرى أباظة » فى مقال خفيف الظل بالأهرام فى عام ١٩٢٢ عن هذه المعركة الدائرة بين وزارة المعارف والطلبة ، حين تنتهز وزارة المعارف من الامتحانات العامة فرصة للتنكيل بالطلبة ، وجعلهم يعضون بنان الندم على ما ضيعوه من أيام فى التظاهر للحركة الوطنية ، فيقول :

« ان وزارة المعارف قدمت لهم أوراق الأسئلة ، وقد كتب على رأسها بالخط الغليظ « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب .. فكما انكم كنتم تصيحون بأعلى أصواتكم قائلين « لتسقط الوزارة اذن هى الآن تصيح بأعلى صوتها قائلة : ليسقط الطلبة » .

ماذا كانوا يريدون ؟

هل يمكن اذن أن نعد تيار الطلبة المتجدد فى الحركة الوطنية قوة مستقلة ؟

وهل كان لهم فكر سياسى ؟

هذان سؤالان يطرحان حين نريد أن نحلل هذه الظاهرة .. وواقع الأمر اننا لا نستطيع أن نعد مد تيار الطلبة قوة مستقلة بعيدة عن الأحزاب السياسية ، لأن الأحزاب السياسية من جانبها

كانت تبـــذل كل جهودها للاستحواذ على هـذه القوة وتنظيمهـا واطلاقها ، متذرعة فى ذلك برفع شعارات الوطنيـة الجارفة التى يتفاوت حظها منها بين الاقتناع والمداورة ٠

كان الوفد بقيادة سعد زغلول ــ حريصا على احتواء الطلبة ، وقد خصص سعد للجنتهم التنفيذية الطبقة الأولى من بيته ليجتمعوا فيها، وقد فطنت أحزاب الأقليات الى هذا الأمر ٠٠فحاولت هى الآخرى احتواء الطلبة بوسائل كثيرة وصلت الى حد الرشوة والافساد ٠

وواقع الأمر كذلك٠٠اننا لانستطيع أن نقول انه كانت للطلبة أسس فكرية سياسية محددة ، فقد كانت هتافاتهم وشعاراتهم التى يستشهدون من أجلها هى « الاستقلال التام ٠ أو الموت الزؤام » فى مرحلة طلب الاستقلال ، ثم الصراخ بالدســتور فى الأزمات الدستورية ٠٠ وليس الطلبة فى ذلك بملومين ، فقد كان الفكر السياسى الاجتماعى للأحزاب المصرية فى جملتها متخلفا الى حـد مزعج ، ولنذكر عندئذ أن الوفد لم يضف كلمة «العدالة الاجتماعية» الى شعاراته الا فى فترة متأخرة جدا قبل ١٩٥٢ وقبل حل الوفد بأعوام قليلة ، وقد أضافها عندئذ حرصا من قادته على المنـاورة السياسية ، اذ كانت القيادة عندئذ قد وقعت فى قبضة الأعيان وقوعا شبه تام ، وكان هنـاك تناقض واضح بين هـذه الدعوى وواقع الأمر ، وكاد هذا التناقض يودى بكيان الوفد ٠

بل ان الواقع أيضا اننا لا نكاد نجد للأحزاب السياسية فى التاريخ المصرى فكرا سياسيا اجتماعيا بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فرغم أن حزب الأمة ينشأ فى حضن المفكرين الا اننا نجد أن فكرهم تعميمى أحيانا ، وقتى مرحلى أحيانا أخرى ، ولن نستطيع أن ننسبهم أو ننسب الأحـرار الدســتوريين الخارجين من معطفهم الى نظـرية اجتماعية بعينها ، الا ما يزعمونه من اللبرالية أو التمسك بالدستور، أما الوفد ، فقد كان سعد زغلول منصرفا تمام الانصراف عن القضية

الاجتماعية ، فلم تؤهله ثقافته الأولى التى حصلها فى الأزهر والمحاماة ، وصحبته الأولى من الأفغانى الى محمد عبده الى حزب الأمة ، لم تؤهله هذه الثقافة لكى يفطن الى أن للحرية والاستقلال جانبا اجتماعيا ، كما لم تمهله سنوات قيادته القصيرة للحركة الوطنية مع ما ازدحمت به هذه السنوات من أحداث لأن يتبصر فى الواقع الاقتصادى والاجتماعى لمصر .

ان سعد زغلول يفاجأ فى فترة حكمه القصيرة بالاضطرابات العمالية ، فيقمعها بشدة ، ثم يوغر الى سكرتير الوفد « عبدالرحمن فهمى » بلم شمل الطوائف العمالية فى نقابات خاضعة للوفد تأتمر بأمره وتسير حسب ارادته ، ولم يكن لهذه النقابات دور واضح فى تفجير المشكلة الاجتماعية فى مصر ..

بل ان سعد زغلول استعمل بعض وسائل القمع ضد من كونوا أحزابا وتكتلات شيوعية فى مصر فى الفترة مابين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٤ ، ولكننا لا نريد أن نغلو فى مؤاخذته على هذه التهمة ، بل لا نريد أن نؤاخذه اطلاقا ، فقد كانت معظم هذه القيادات من يهود فلسطين ، وكانت تتستر برداء الشيوعية اخفاء لحقيقتها الصهيونية ، فضلا عن احتمائها بمظلة الامتيازات الأجنبية ، ويكفى أنه كان بين الأسماء اللامعة فى هذه الحركات شارلوت وجوزيف روزنتال ، وشالوم بولاك ، وهارون واينبرج ، وريدل هارسليك ، وليون الكونين ، وقسطنطين قايس وغيرهم .

تقييم :

والآن .. ألم يكن فى مصر حركة اجتماعية ناضجة حين أدى الطلبة الجانب السياسى من الحركة الثورية ..

كان هناك فكر ينمو متمهلا متخبطا مترددا خارج الأحزاب التقليدية ، وبخاصة بعد معاهدة ١٩٣٦ ، اذ تصور كثير من المصريين

أن معركة الاستقلال قد انتهت وأن الدور الآن لمعركة العدالة الاجتماعية ، وبدأت الكلمات الثائرة تتردد فى الصحف ، حتى زادت وعلت نبرتها فى سنوات ما بعد الحرب ، وكانت ممهدة للتغيرات الاجتماعية الكبرى بعد عام ١٩٥٢ .

◆ ◆ ◆



بين السكسون واللاتين !



• لماذا اتجه الفكر المصرى الى الغرب ؟
• شعر مصطفى كامل فى مدح فرنسا !
• مشية الغراب ومشية الطاووس !

- ١ -

اختلف الرائدان الكبيران للتجديد فى الفكر المصرى الحديث : أى الثقافتين أجدر بأن تقتبس منها الثقافة المصرية الناشئة ، وتحذو حذوها ، وتمد من آفاقها لتصلها الآفاق الغربية ، أهى الثقافة السكسونية التى أبدعها أصحاب اللغة الانجليزية ، أم هى الثقافة اللاتينية التى أبدعها أصحاب اللغة الفرنسية ؟

كان هذا هو محور المناقشة الأدبية التى دارت بين عباس محمود العقاد ، وطه حسين فى عشرينات هذا القرن • وتحمس العقاد للثقافة السكسونية ، التى عرف من خلال لغتها الانجليزية آفاق الفكر الحديث والقديم ، فأسهب فى بيان فضلها وتفوقها بينما تحمس طه حسين للثقافة اللاتينية ، التى أطل من خلال نافذة لغتها الفرنسية على الساحة الواسعة للفكر العالمى • وليس المجال هنا مجال ترجيح رأى أحد من الرائدين الكبيرين ، فاننا الآن تجد أن هذا الخلاف خلاف جدلى أكثر منه خلافا واقعيا • فالحضارة الغربية كل متماسك ، والقرابة بين بعض اللاتين وبعض السكسون أقرب منها بين سكسونى وسكسونى آخر ، أو لاتينى ولاتينى آخر • ونحن نعلم أن المذهب الأدبى قد يولد فى بلد ما من بلدان أوروبا ، فلا يلبث أن يجاوزها الى غيرها من البلاد • ونستطيع أن نقول ان الحضارة الغربية كلها هى وريثة حضارة اليونان والرومان • وانها هى فى كل تجلياتها سواء أبدعها التيوتون الجرمان أو السكسون البريطان أو الفرنسيون اللاتين ؛ بل ان مؤرخا معاصرا يتجلى فى نظرته امتزاج العلم والالهام مثل أرنولد توينبى ، يرى إن الفكر الروسى الحديث – والشيوعى على وجه الأخص – ليس الا جانبا من جوانب

الحضارة الغربية احتج عليها ، ثم ما لبث أن امتزج بها ، وهو يرى أيضا ان **كارل ماركس الألماني** ليس الا وريثا **لهيجل الألماني** الذى هو وريث بدوره لحركة **الانسانيين الفرنسيين** •

لا تعنينا اذن تفاصيل هذه المناقشة التى شغلت المثقفين فى ذلك الزمان ، ولكن يعنينا من أمرها دلالتان واضحتان :

أولاهما : ان فى مجرد المناقشة فى هذا الموضوع اقرارا ضمنيا بأن الثقافة العربية السلفية لا تكفى وحدها لصنع الانسان الجديد ، بل لابد له من البحث عن منابع جديدة ، يفتش عنها فى فكر هـذه الأمم المتقدمة التى ترتفع الى شـمال المتوسـط أو تمتد الى أعالى المحيط ، فنحن عندئذ لا نتجه الى فكرنا السلفى القديم وحده ، ولا نتجه الى فكر جيراننا فى الشرق القريب أو الشرق البعيد ، ولكننا نتجه الى الغرب لا يمنعنا من التقدير لحضارته وثقافته فصول مأساته السياسية معنا • فقد تحدث **العقاد** عن ثقافة السكسون والمعركة حول الاستقلال محتدمة بيننا وبين الانجليز •• وقد كان **العقاد** عندئذ الكاتب السياسى الأول لحزب الوفد • ولعل فى هذا ما يلفتنا الى سخافة ما يروج له البعض الآن من الانغلاق تحت شعار مقاومة الغزو الثقافى ، فالثقافة لا تغزو ولكنها تبنى وتنير ، وقراءة **شكسبير وكارلايل وهازلت** ، لم تثبت الاحتلال الانجليزى لمصر • بل لعلها ساعدت على زحزحته بما ألهبت فى النفوس من معانى الحق والخير والجمال •

ومن الواضح ان هذا المعنى كان هو المحرك لمغامرات العقـل المصرى خلال القرن التاسع عشر ، فقد سافر **الطهطاوى** الى باريس كما أسلفنا ، وعـاد وفى ذهنه آثار **مونتسكيو وجان جاك روسو وفولتير** • وقرأ **عرابى** كتابا عن **نابليون** أهداه اليه سعيد ، فأيقظ هذا الكتاب فى نفسه رؤى من الثورة الفرنسية ، وقد كان **محمد عبده وسعد زغلول** حريصين على تعلم **اللغة الفرنسية** فى أواسط

عمريهما ، وتلقن **سلامة موسى** من جمعية الفابيين الانجليز شذرات من الفكر الاشتراكى والعلمى ، ولسوف نجد فى تاريخنا الحديث أثر هذه « **التغريبة** » أو الرحلة الى الغرب واضحا فى معظم رواد فكرنا ، **محمد حسين هيكل** يسافر الى **فرنسا** فيعود ليكتب روايته الرائدة « **زينب** » متأثرا فيها بالنزعة الرومانسية الفرنسية ، **وتوفيق الحكيم** يعيش فترة فى **باريس** ، فيعود لينتقل بسرعة من مسرح **الاستعراض** الى مسرح **الفكر** ، **وحسين فوزى** يعود ليجعل من نفسه رسولا لهذه الحضارة الواسعة ، يطل بمنظارها وهو يقرأ تاريخنا وآدابنا فيكتشف فيه بمناهجه الجديدة جمالا وسحرا جديدين ، أما **طه حسين – أستاذ الأساتذة والأب الجليل لكل ماهو جميل ومثمر فى حياتنا الثقافية – فالحديث عن دوره لا يتسع له هذا المجال ، ولكن ملمحا من ملامح هذا الدور العظيم انه أثار لأجيال كثيرة بعض مسالك العقل والذوق الأوروبيين .**

أما الدلالة الثانية لهذه المناقشة..فهى ان العقل المصرى قد تحدد اتصاله بهذين الرافدين من الحضارة الغربية وحدهما الى مدى طويل فيما بعد ، بعد أن كان اتصاله بهما وحدهما خلال قرن سابق من الزمان ، ورغم أهمية هذين الرافدين الا انهما ليسا وحدهما وجه الفكر الأوروبى ، **فهناك الأدب الروسى** بمغامراته الروائية والمسرحية العظيمة فى القرن التاسع عشر ، وهناك **الفكر الألمانى** بفلسفته التى أثرت فى مجرى الفكر الانسانى أيما تأثير بعلميها الكبيرين «**كانت**» و «**هيجل**» وبحفنة أخرى من لامعى الاعلام ، وهو مؤثر أيضا بأعلام أدبائه مثل « **جوته** » و « **شيلر** » وبأعلام موسيقيه ونقاده ، وهناك أخيرا هذا الفكر الناشىء على الضفة الأخرى للأطلسى فى هذه الأرض الجديدة ، حيث تبرز أسماء بعض الفلاسفة والمربين الروائيين والشعراء . ورغم أن أدب هذه البلاد يكتب باللغة الانجليزية الا انه كان غريبا عن أذهان هؤلاء المفكرين بل ان **الولايات المتحدة** ذاتها لم تكن تعنى شيئا بالنسبة للمصريين حتى أواسط القرن التاسع

عشر ، ولنذكر هنا أن **رفاعة الطهطاوى** حار فى ترجمة اسم هذه البلاد الى العربية ، حتى لتوشك على القول انه لم يكن يعلم بوجودها قبل أن يسافر الى **باريس** ، فهو يترجم اسمها أحيانا « **الايالات المتجمعة** » ويكتبه أحيانا أخرى كما يكتب بالفرنسية « **اتيابونى** » .

لم تدخل **الولايات المتحدة** الى مجال الاهتمام المصرى الا حين فكر بعض المصريين فى الاستعانة بها على اخراج الانجليز أو احراجهم . **فقد زار مصر فى عام ١٩٠٤ أحد أعضاء الكونجرس الأمريكيين..فاحتفى به المصريون أيما احتفاء ، ولكنه أخلف ظنونهم حين صرح بموافقته على الاحتلال البريطانى ، وخاب الظن مرة ثانية حين أعلن « ولسون » مبادئه حول حرية تقرير المصير للشعوب بعد الحرب العالمية الأولى..فاستبشر المصريون خيرا ، وهرع قادتهم الى مؤتمر الصلح يستعينون بولسون فاذا به يكذب ظنونهم للمرة الثانية ، ويعترف بالحماية البريطانية لمصر ، ففكر سعد زغلول ورفاقه فى ارسال أحد أعضاء الوفد الى أمريكا للدعاية للقضية المصرية ، وسافر محمد محمود الى هناك ، فنشر بضع مقالات وأدلى بعدة تصريحات ، ثم آثر أن يستأجر عضوا من أعضاء الكونجرس للدعاية لمصر وبذل هذا العضو جهده ، ولكن الوفد عرف بعد قليل أن القضية المصرية لاتحل الا على أرض مصر..اذ علمتهم الجماهير أن الثورة وحدها هى التى تصنع للحق لسانا يتكلم به .**

كان السكسون البريطان والفرنسيون اللاتين هما أوروبا والغرب بالنسبة للمصريين ، وكانت لندن وباريس هما العاصمتين اللتين تلوحان لعين المصرى حين يستشرف آفاق الشمال ، ولعل ذلك هو الأثر الحضارى لنزاع **انجلترا وفرنسا** على **مصر** ، هذا النزاع الذى استمرت فصوله تتوالى مائة عام أو يزيد ، ولم يحسم الا حين اتفق الطرفان على اقتسام الشمال الافريقى فى عام ١٩٠٤ .

القصة المثيرة :

ان الجانب السياسى من النزاع الانجليزى الفرنسى على مصر لقصة مثيرة الحلقات ، وكأنه كان قدرا على هذا البلد ، الوادع المطمئن أن تتآمر عليه أكبر قوتين فى القرن التاسع عشر ، اذ تدرك القوتان ان **مصر** هى باب امبراطورية الشرق بالنسبة لكل منهما ، وأن هذه البلاد لو تركت وشأنها لاستطاعت بوضعها الجغرافى أن تكون قوة **مستقلة** ذات ارادة ٠ ومحركة أيضا لقوى أخرى حولها ، وقد عرفت أوروبا ، وبخاصة **انجلترا وفرنسا هذا الأمر** ، حين وجدتا **مصر فى عهد «محمد على» تمد نفوذها الى منابع النيل ، وشرقا الى صحارى نجد وشمالا الى جبال طوروس** ، وحين وجـدنا أن هـــذا العنصر المصرى يستطيع أن يكون خالقا مبدعا يتبنى تقاليد الحياة الجديدة وأساليبها من حيث ذكاء الفكر وحسن التنظيم ومهارة الصنعة ، ولذلك فقد قادت **انجلترا** دول أوروبا الأخرى لكبح جمـــاح الحـركة المصرية وتقييدها ، وهكذا اتفق **«بالمرستون» الانجليزى و«مترنيخ» النمساوى مع ممثلى بروسيا وروسيا** لأول مرة فى تاريخ أوروبا الاستعمارية على قص أجنحة مصر ، وتولت **انجلترا** الجانب القذر من المهمة فهددت أسطولها السواحل المصرية لكى يجبر **محمد على** على الانسحاب من **سوريا والحجاز** ٠

أما **فرنسا** ٠٠ فقد كان لها موقف مضحك، فقد صرحت أكثر من مرة بأنها تؤيد **محمد على** ٠٠ ورفضت أن تشترك مع الدول الأخرى فى هذه المعاهدة المعروفة **بمعاهدة لندن ١٨٤٠** ، وحين وقعت المعاهدة أرغت وأزبدت ، ووعد ملكها **لوى فيليب** بمعاونة **محمد على** ، حتى اذا جد الجد اذا **بالفرنسيين** يسحبون أسطولهم من البحر المتوسط ، ويتركون **محمد على** لمصيره المؤلم ٠

وتجد **انجلترا وفرنسا** فرصتهما بعـــد ذلك حين يتخبط **اسماعيل** فى ديونه ، وتبدأ فصول القصة المؤلمة التى انتهت بهبوط

الاسطول الانجليزى على شواطىء **الاسكندرية** ، واحتلال الانجليز بعد ذلك لأرض مصر . ومما هو جدير بالذكر .. أن الأسطول الانجليزى لم يأت وحده الى شواطىء الاسكندرية ، بل كان بصحبته الأسطول الفرنسى . وكأن الصيادين يخشيان أن ينفرد أحدهما بالفريسة ، **ففى ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ هبط الأسطولان ثغر الاسكندرية ، ونزل منهما الأميرال الانجليزى « سيمور » والأميرال الفرنسى « كونراد » ، وطلبا بوساطة قنصليهما اقامة وزارة البارودى وابعاد عرابى عن مصر .**

ولكن انجلترا خدعت فرنسا ، وانفردت بالعمل وحدها ، فقد دعت بعد قليل الى مؤتمر أوروبى اشتركت فيه هى **وفرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا وايطاليا** ، وأصدر هذا المؤتمر ميثاقا سمى للسخرية « **ميثاق النزاهة** » وتعهدت فيه هذه الدول بألا يحتل أى منها جزءا من أرض مصر ، وبعد ستة عشر يوما كان **الانجليز** ينفردون بالعمل ، ويحتلون **مصر** ..

ولم تغفر **فرنسا لانجلترا** هذه الخدعة ، فظلت مناوئة للاحتلال الانجليزى لمصر طوال العشرين عاما التالية حتى أبرم بينهما الاتفاق الودى . وسلمت **انجلترا لفرنسا** بحقها فى التهام المغرب العربى كما سلمت **فرنسا لانجلترا** بحقها فى التهام مصر .

وخلال هذه السنوات العشرين كانت السياسة الفرنسية تقوم على مناوأة انجلترا فى مصر ، فهى تصدر التصريحات التى تندد بالاحتلال ، وتدعو فى المؤتمرات الدولية الى عودة مصر الى الخلافة العثمانية ، وتشكك فى شرعية الوجود البريطانى ، اما فى داخل البلاد فقد كانت تشجع بعض الصحف المصرية على مهاجمة الاحتلال البريطانى ، وكان أبرز هذه الصحف هى صحيفة الأهرام ، التى كان أصحابها يتمتعون بالحماية الفرنسية .

ومن الصفحات الموجعة فى تاريخ مصر .. أن تدور لهجة بعض الصحف ، فى ذلك الحين ، حول المفاضلة بين الاحتلالين الانجليزى

والفرنسى ، فقد دأبت « المقطم » فى ذلك الوقت دفاعا عن بريطانيا وتعريضا بالفرنسيين أن تشير الى احتلال فرنسا لتونس والجزائر ، وان الاحتلال الانجليزى أهون من غيره ، بل لقد كانت تقول ذلك فعلا ، فكانت الصحف ، الفرنسية النزعة ، ترد عليها بأن الاحتلال الفرنسى أصلح من الاحتلال الانجليزى وأكثر نفعا ، بل لقد وصل الأمر الى المقـــارنة بين قوة انجلترا وقوة فرنسا ، وكأن العبيـــد يفتخرون بقوة سادتهم العظماء ٠

تقول صحيفة « الزمان » ، احدى صحف الانجليز :

« لكل أمة علامة تعرف بها » ومن بين أمم أوروبا أمة معروفة بهوجها وهذرها ، فالفرنسيون ينقمون على الانجليز احتلالهم للقطر المصرى وينسون انهم هم الذين أهاجوا الانجليز على التداخل فى أمور مصر وكبر عليهم أن يروا الانجليز الآن فى مصر وهم محرومون منها ، ولم يكبر عليهم انهم استولوا على تونس غصـــبا واختلاسا للسـلطان ، نعم كبر عليهم دخول الانجليز بلادنا ولـكن أى شىء صنعوا وأى عهد نقضوا ، فخديوينا خديوينا ومحاكمنا محاكمنا ووزراؤنا وزراؤنا وبيدهم الحل والربط ، واما فى تونس ٠٠ فالحال تبدلت ، اذا أبى الفرنسيون الا خروج الانجليز من مصر فليبدأوا هم بالخروج من تونس » ٠

وتقول الأهرام :

« ان من ينظر فى أحوال تونس لا يمكن الا أن يقر بجميل فرنسا على تلك البلاد فى البرهة اليسيرة التى حلت بها ، فلن تمر بضع سنين حتى تصبح تونس من أثرى البلاد الافريقية بعد سن القوانين وانشاء المجالس والمدارس الفرنسية ٠٠

ولقد ثارت ذات مرة ملاحاة حادة بين الأهرام والمقطم حـــول قوتى فرنسا وانجلترا ، اذ قالت الأهرام ذات مرة أن فرنسا قوة بحرية مرموقة ، فتصدت لها المقطم متحدثة عن انجلترا سيدة البحار

ودعمت الأهرام بصحيفة « أضغاث الأحلام » ، وردت الأهرام بأن فرنســا لها قوة برية عظيمة ، وهــكذا مضت الجريدتان فى هــذه المناقشة المؤلمة المريرة .

وكانت فرنســا تعمل على مساعدة بعض العناصر الوطنيــة . ولعلها استهدفت ذلك حين سمحت **لمحمد عبده والأفغانى** باصدار «العروة الوثقى» فى باريس : وحين استضافت **يعقوب صنوع** رغم اننا نشك فى نوايا هذا الرجل الوطنية ، ويغلب على ظننا أنه كان عميلا فرنسيا بالمعنى الحرفى للكلمة ، فانعكس ذلك نوعا من حسن الظن بفرنسا ، واغفالا من بعض المصريين لدورها الاستعمارى المقيت فى تونس والجزائر ، ولعل بقية من هذه الثقة الطيبة هى التى وجهت خطى **مصطفى كامل** الى فرنسا فى بداية كفاحه الوطنى وجعلته فى عام ١٨٩٥ يتقدم بمنشور مصور الى مجلس النواب الفرنسى يرسم فيه رمزا لفرنسا امرأة قائمة على درجات عالية لبناء عظيم ، يقف تحت قدميها جمــوع المصريين يستصرخونها أن تعاونهم على نيــل حريتهم ، وكان تحت هذه الصورة ثلاثة أبيات من شعر **مصطفى كامل** وترجمتها بالفرنسية ، والأبيات هى :

أفرنســا يا من رفعت البـلايا
عن شــعوب تهــزها ذكــراك

انصرى مصر ، ان مصر بســوء
واحفظى النيــل من مهاوى الهــلاك

وانشرى فى الورى الحقائق التى
تجتلى الخــير أمــة تهــواك

ومما يذكر انه كان مع هذه الصورة خطاب يقول فيه **مصطفى كامل** :

« .. ولكن مصر لما اعتراها النصب..جاءت مستغيثة بفرنسا،

هذه الدولة العظيمة التى أعلنت حقوق الانسان ، والتى سارت به منذ قرن فى سبيل التقدم والمدنية ، وجاءت الأمة المصرية تستغيث بهـــذه الأمة الكريمة التى حررت أمة من الأمم ، فهل تجـاب الى استغاثتها وتضرعها •• فلتحى فرنسا محررة الأمم » ••

هكذا كان الظن بفرنسا ، وقد يكون **مصطفى كامل** بعض العذر ، فهو يعلم ان فرنسا هى قائدة الثورة الكبرى التى أعلنت مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، وان الفكر الفرنسى فكر انسانى عظيم ، ولكنه لم يكن يعلم ــ حتى ذلك الوقت ــ ان للسياسة وجها غير وجه الفكر ، وأن المصالح تتحكم فى المبادىء حتى تمحوها محوا • ولقـد أدرك مصطفى كامل بلا شك حين أبرم الاتفاق الودى أن الوصـــول الى الاستقلال من خلال التنــاقض بين القوتين الكبيرتين انجلترا وفرنسا ، لون من الأحلام الرومانتيكية الساذجة ••

كان **مصطفى كامل** فى ذلك الوقت متأثرا بما يسمى « **دولية المسألة المصرية** » بمعنى انها ليست نزاعا بين الانجليز والمصريين ، ولكن القوى الدولية كلها لها رأى فى حلها وتوجيهها ، وكان متأثرا بما يقال من قوة الرأى العام العالمى فى ذلك الوقت ، ولذلك فاننا نجده يستصرخ فرنسا ، ثم ينشر مقالاته وأحاديثه فى صحف النمسا وايطاليا وألمانيا بل وأمريكا ، ولكنه بعد ذلك كله لا يجد حلا الا بأن يعود الى مصر ليؤسس فيها حزبا يرجى منه أن يتولى تجميع أبناء البلاد فى كتلة وطنية واحدة ••

وقد ظن أعضاء الوفد المصرى فى عام ١٩١٩ انهم يستطيعون بهذا الطـــابع الدولى للمســألة المصرية أن يســتعينوا بالأمريكيين والفرنسيين والايطاليين على الانجليز ، فبذلوا فى ذلك بعض السعى ، ثم ما لبثوا أن فطنوا الى أن المسألة المصرية لا تحل الا فى الأرض المصرية ، وأن الطرفين الوحيــدين فيهــا هما شعب مصر ، والقوة الانجليزية الباغية • وبينهما وحدهما يدور النزال ••

عود الى الثقافة

أرانا ابتعدنا كثيرا عن بداية الحديث ، ولكن هذا الحديث عن الصراع السياسي بين القوتين الكبيرتين على أرض مصر كان لابد له للحديث عن الصراع الثقافى ، هـذا الصراع الذى قاد الى هـذا السؤال :

أيهما أجدى لنا ‥ ثقافة السكسون أو ثقافة اللاتين ؟

وهو أيضا الصراع الذى خرجت منه مصر بثقافتها الحديثة ، التى اســتطاعت ، أو على الأقل طمحت الى التوفيق بين الأصالة والمعاصرة ، بين التراث والتأثر ‥

ـ ٢ ـ

تنافس الانجليز والفرنسـيون على الاسـتبداد بالعقل المصرى كما تنافسـوا على الاسـتبداد بالأرض المصرية . وكان مجال هـذا التنافس هو التعليم ومناهجه ومعاهده . وشـهد القرن التاسـع عشر وأوائل القرن العشرين فصولا من هذه الحرب الدائرة بين رجال هاتين الدولتين فى مجـال انشـاء المدارس وتلوين مناهجهـا ، واستهدفت اللغة العربية فى هذا الصراع الدائر لأثر اللغتين البالغ ، سواء فى عبارتها أو ألفاظها ، بل تأثرت الحياة المصرية بهذا الجانب اللغوى من الصراع أثرا ما زال يعيش بيننا الى اليوم . ويكفى فى مجال اللغة والتعبير أن تقرأ عبارات مثل « وهذا الأمر يشكل خطرا على » أو « واذا وضعنا فى الاعتبار » ‥ أو « وبالاشارة الى » أو غيرها من العبارات لندرك تسـلل هذا الاسـلوب المترجم ، أما فى الحيـاة العامة فيكفى أن يتوقف متوقف فى أحد ميادين القـاهرة أو شوارعها الهامة ليقرأ أسماء المحال التجارية والملاهى وغيرها ، فسيجد عندئذ عجبا من العجب ‥ سيجد أسماء فرنسية أو انجليزية لكل

ما يراه ، وكأن اللغة العربية ثقيلة الظل على أهلهـا ، جافية الوقع على ألسنتهم ٠

والواقع أن اللغة العربية لم تكن فى تلك السنوات البعيدة القريبة ٠٠ فى أوائل القرن التاسع عشر ، فى حال تستطيع فيها أن تقاوم هذا التيار الوافد ٠ فقد كانت العربية الشائعة لغة ركيكة فقيرة محصورة فى بعض الألفاظ والعبارات ٠ ومن البديهى أن اللغة الفقيرة هى سبب للفكر الفقير ونتيجة له فى الوقت ذاته ٠ فاللغة الفقيرة لا تستطيع أن تتجاوز الآفاق الكسول المتوارثة الى آفاق جديدة ، اذ يعوزها اللفظ والتعبير ، كما أن الفكر الفقير لا يحاول أن يبحث عن ألفاظ جديدة من مدخور اللغة ومكنوزها لكى يعيد بعثها بالاستعمال ، ويزيل عنها صداها حين تدور على الألسنة والأقلام ٠

والسجلات الرسمية تحفظ لنا نماذج من كتابات هذا العصر ، كما يمثل الجبرتى أسلوب هذا العصر الأدبى ، حتى اذا مضينا فى حكم محمد على ٠٠ فسنجد أن التركية هى لغة الدواوين المعتمدة ، فاذا زاحمتها العربية دخلت مترددة ركيكة ، حتى ليقارن ولاة الأمر بين هذه اللغة التى يقرأونها ، ولغات الأجانب من حيث سلامتها وصحتها واهتمامها بمكملات الاسلوب من الترقيم والتقسيم فيوجه محمد على خطابا الى كتاب دواوينه العرب ينصحهم فيه بالتزام الصحة اللغوية والكتابية ، ولكن هذا التوجيه ذاته يكون آية فى الركاكة والقبح اللغوى ، يقول التوجيه :

« التحقيقات التى يصير استكتابها حسب الايجاب بقبول الحسابات بيصير ترقيمها بالرقم الهندى وبداعى عدم دقة ورغبة بعض الكتبة وغشومية وعدم اعتنا البعض منهم ، فبكل وقت بيصير وقوع السهو والسقامة منهم بتحرير الأرقام » ٠

ولن يفوت القارىء لكتابات هذا العصر ٠٠ أن يجد الأخطاء

النحوية واللغوية الشائعة حتى فى آثار أعلام الكتاب ، وسيظل كذلك حال اللغة حتى تنهض نهضتنا الباذخة فى مجال الشعر حين يحلق بها البارودى ، وفى مجال النثر حين يديرها فى أغراض الحياة العامة محمد عبده والأفغانى ومعاصروهما من الكتاب والصحفيين ٠

أخذت اللغة العربية اذن عن هاتين اللغتين جملة من الأساليب والألفاظ ، ولا نعنى بالألفاظ هنا ما اصطلح على تسميته بألفاظ الحضارة وحدها ، مثل أسماء الآلات والمستحدثات العصرية ومنتجات العلوم ، بل ألفاظا أخرى لها نظائر فى لغتنا العربية ، ولكن التيار الوافد أبعدها عن الأذهان لتحل محلها ألفاظ أوروبية البناء والأصل ٠

ولكن ذلك كله هو الجانب الهين من الأمر ، أما الجانب الآخر فهو جانب التعليم ذاته ، ومن البديهى أن الاتجاه الفرنسى كان هو الغالب على عصر محمد على وخلفائه حتى الاحتلال الانجليزى لمصر ، وقد استطاع الفرنسيون فى هذه الفترة أن يمدوا نفوذهم فى مجال التعليم ، وبخاصة وقد كان نابليون قد ألقى البذرة الأولى للأثر الفرنسى فى ابان حملته على مصر ٠ وفى عهد محمد على كان لامبير الفرنسى ناظرا للمهندسخانة وكلوت بك الفرنسى ناظرا للطب ، وكانت البعثات العلمية تسافر الى فرنسا ، ليعود العائدون وفى نفوسهم شىء كبير من التقدير لهذا الوجه الأوروبى الذى عرفوه ، فلا غرو عندئذ أن يترجم رفاعة الطهطاوى نشيد المارسيليز الى العربية اعجابا به ٠

أما فى عهد اسماعيل فقد تولى فرنسيون كذلك نظارة معظم المدارس العالية ، كما شهد هذا العهد انشاء سبعين مدرسة من المدارس الأجنبية التابعة للارساليات التبشيرية ، كاليسوعيين والفرنسسكان والانجيليين وغيرهم ٠ فضلا عن مدرسة الحقوق الفرنسية المعروفة ٠

وحين دخل الانجليز مصر كان دأبهم هو اجلاء النفوذ الفرنسى

عن التعليم . وتصدى لذلك «دنلوب» الشهير ، ويروى لنا التاريخ كيف انتهز دنلوب فرصة تغيب سعد زغلول وزير المعارف فى عام ١٩٠٧ ، وأقال مسيو لامبير ناظر مدرسة الحقوق . وعين بدلا منه انجليزيا ، فأثار ثائرة البلاد والفرنسيين معا .

وتمضى الأمور بمصر ، وينهض جيل من أبنائها يتولى مقاليد التعليم فيها ، ولكن بقية من الأثريين القديمين لا تزال تتغلغل فى ثنايا النظام التعليمى المصرى . فتظل الانجليزية أو الفرنسية هى اللغة الثانية فى التعليم سنوات طوالا ، وتظل البعوث العلمية موجهة الى فرنسا أو انجلترا ، ليعود المبعوثون ، وفى ذهنهم صورة للمدرسة الانجليزية أو المدرسة الفرنسية ، حتى يدخل تيار تربوى جديد هو التيار الأمريكى الذى لا يألف الثقافة ويفضل عليها الحرفة والعمل اليدوى ، ولا يهتم كثيرا بالانسانيات ، ويؤمن بتضييق مجال الجامعات ايثارا للمعاهد المهنية ، ويدور صراع بين الاتجاه الانسانى الفرنسى فى التعليم ومثله طه حسين ، والاتجاه التطبيقى المهنى ومثله اسماعيل القبانى ، وتظل مصر فى غمرة هذا الصراع حتى الآن ، ويظل تعليمها مهدا للتجارب وللعدول عن التجارب ، لا تستطيع أن تؤثر أحد الاتجاهين ، ثم تمضى فيه الى غايته ...

« فى الثقافة »

وتنعكس آثار هذه الملحمة الواسعة التى دارت فى مجالات السياسة حينا ، وفى مجالات التعليم حينا آخر ، انعكاسات متباينة الأثر فى الحياة المصرية ، بعض هذه الانعكاسات مثير للجدل ، وبعضها مفيد بناء ، وبعضها ضار مهلك .

يقول سلامة موسى فى كتابه « اليوم والغد » ان وجهتنا الصحيحة الوحيدة هى أوروبا ، ويهاجم التراث العربى بجملته فى كثر من موضع من كتبه . ويرى الدكتور زكى نجيب محمود فى

أحد كتبه المبكرة أن شروق الحضارة الجديدة لا بد أن يكون من الغرب .. ويقول الدكتور حسين فوزى فى كتابه « سندباد عصرى » :

« أفضل بلا تردد حضارة كالحضارة اليونانية ، أو ربيبتها حضارة أوروبا بعد تخلصها من نير القرون الوسطى ، لانها حضارة وسط بين الروحية والمادية ، ولانها حضارة تنادى باطلاق العقل البشرى من عقاله ليفكر غير مقيد ، فتشجع الفلسفة ودراسة الطبيعة فى كل أطوارها وأوضاعها . ولانها حضارة تقوم على الجمال وعبادة الجمال ، ولانها تسعى الى المساواة الاجتماعية ، وتهيىء للفرد فى الجماعة سبيل المعرفة لتمكنه من أن يصبح عنصرا حيا فى بناء العالم ، يساهم فى تقدمه ، وينعم بثمار هذا التقدم ، لا حجرا صلدا يقوم عليه البناء الاجتماعى فى سبيل اسعاد أفراد معدودين يسكنون هذا البناء ، ويتمتعون وحدهم بهوائه فى الصيف ودفئه فى الشتاء » .

هذه الدعوة « الاستغرابية » واضحة الملامح شديدة الجاذبية فى أنحاء حياتنا ، وهى تبدو أحيانا قريبة من الحق ، فما دامت هذه الأمم الغربية قد حققت هذا التقدم الذى مكن لها من السيادة علينا بهذه المناهج فى النظر الى الكون والأشياء ، وبهذا النسق من التفكير والتدمير ، فلا بد لنا من أن نتابعها ، وأن نخرج عن جلودنا القديمة لنكتسب جلودها ، فقد يفتح الله علينا عندئذ فنستطيع أن نجاريهم، ونثبت لهم فى مجال المحاجة والجدل ، أو فى مجال الفعل والتصرف . وكيف لا نفعل ذلك ، وهم لم يكتسبوا العلم والتكنولوجيا فحسب ، بل أن أدبنا متخلف بالنسبة الى أدبهم ، وفكرنا فقير بالمقارنة الى فكرهم ، وموسيقانا ضجيج أن قيست الى موسيقاهم ، بل ان حياتنا سطحية مبتذلة بوجه عام ، بينما حياتهم دائبة الحركة ، راسخة الأسطول عميقة الطموح ..

وقد كان أستاذنا الدكتور طه حسين يقول بشىء من هذا الرأى

في كتابه « مستقبل الثقافة المصرية » ، اذ بسط في بعض فصوله نظريته القائلة ان مصر لا تنتمي الى الشرق بمعناه الذى يشمل الهند والصين ، ولكنها تنتمي لحوض البحر المتوسط ، وأن عليها أن تخلع عنها هذا الرداء لترتدى رداءها الجديد ، وغالى طه حسين فطلب أن يدرس طلابنا اللغة اللاتينية في المدارس الثانوية كما يدرسها طلاب الفرنسية ، ناسيا أن اللاتينية أصل الفرنسية ، بينما لاتكاد تمت الى العربية بسبب .

هذه الدعوات الحارة الى الاستغراب..هى لون من السخط على الواقع . حين تستبد الحماسة بهذا السخط ، فتحرفه عن مجاله الصحيح ، فنحن مع هؤلاء المفكرين في أن فكرنا مكبل بالأغلال والقيود المتوارثة ، وأن أدبنا لا يرقى الى مجال المقارنة بأدب الغرب ، بل ان حياتنا ينقصها هذا التمدد الصحى الذى يشكل توقا الى الأحسن وتجاوزا للواقع الى تخوم جديدة..ولكننا أيضا نعرف أن مكاننا جغرافيا هو هذا المكان ، وان وراثتنا البيئية هى هذا الميراث العربى الذى كان زاهرا وافيا باحتياجات عصره يوما ما ، وان كل ما تكسبه من الاستغراب هو أن ننسى مشية الغراب ولا نستطيع أن نقلد مشية الطاووس .

ان علينا عندئذ أن نرضى بتراثنا وبحاضرنا معا ، وأن نحاول أن نوفق بين موقعنا من خارطة الحضارة العالمية ، واندفاع هذه الحضارة وتقدمها ، وقد يكون هذا التوفيق أمرا عسيرا ، ولكن واقع الأمر أن الأجيال العربية الجديدة استطاعت أن تصل الى هذا التوفيق في مجالات شتى ، فقد استطاعت أن تصل اليه حين درست في المدارس العصرية فنون العلم المحدث ، واستطاع بعض أفرادها أن يتفوقوا في درسه وأن يوائموا بينه وبين نفوسهم الشرقية ، واستطاعت أن تصل اليه حين طمح بعض أفرادها أن يكتبوا فنون المسرح والرواية والقصة وغيرها من الأبنية الفنية المحدثة ، فكان لنا منهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهما ، واستطاعت هذه

الأجيال ــ حين خرجت المرأة المصرية الى الحياة العامة ، فاثبتت وجودها ونهضت بعبء دورها الجديد ٠

ولكن الصورة قد لا تبدو باهرة حتى الآن ، ويقينى أن العتامة على هذه الصورة ليست الا عتامة زائلة يوما ما ، وأن السبب الرئيسى فيها هو هـذه النسبة الهائلة من الأمية التى نعايشها ، فان محـو الأمية من مصر ليس شعارا أو رقما احصائيا يتيح لنا الفخر فحسب، ولـكنه رفع للغطاء عن مخزن بشرى ضـخم ، حافل بالمواهب الفنية المتدفقة التى حال صدا الأمية وغطاؤها الكثيف دون انطلاقها ٠

« انحرافات »

وقد تغلو دعـوة التغريب أحيـانا حتى تنحـرف الى قضيتين غريبتين ٠

أولاهما : الدعوة الى اللهجـات العامية ، اسـتنادا الى قضية اللاتينية وتفرعها الى اللغات المختلفة الفرنسية والايطالية والاسبانية، وقياسا لحاضر المجتمع العربى على واقع أوروبا فى العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة ٠

ولهذه الدعوة تاريخ قديم تحمس لها بعـض المصريين بحسن نية ، وتحمس لها بعض غير المصريين أيضا ، ولعلنا نلمح بداية لها عند رفاعة الطهطاوى اذ يقول فى كتابه « آنوار توفيق الجليل » ٠٠ ٠

نعم ان اللغة المتداولة فى بلدة من البـلاد ، المسـماة باللغة الدارجة ، التى يقع بها التفاهم فى المعاملات السائرة لا مانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصول على حسب الامكان تربطها، ليتعارفها أهل الاقليم ، حيث نفعها بالنسبة اليهم عميم وتصنف بها كتب المعارف العمومية والمصالح البلدية ٠٠

لقد أشار رفاعة الطهطاوى فى هذا الحديث الى تبنى العامية ،

ولكنه لم يصرح ، وربما كان دافعه الى ذلك سوء حال اللغة العربية عندئذ مع ما علمه فى أثناء اقامته فى فرنسا من خروج الفرنسية المحدثة من اللاتينية القديمة ، وما رآه من ولع كل من رآه بالثقافة والعلم واقبالهم ـ بما فيهم خدم المقاهى ـ على قراءة الصحف والمجلات فظن ان الكتابة بالعامية قد تنشر الوعى بين الناس ، ناسيا أن خطوة هامة ينبغى أن تسبق كل قراءة سواء أكانت بالعامية أم الفصحى ، وهى تعلم القراءة ذاتها ..

وتدور الأمور بهذه الدعوة · ويتحمس لها بعض المستشرقين ممن لا نستطيع أن نحكم على نواياهم ، ويؤلفون قواميس اللهجة العامية ، ويغلو فى الترويج لها «ويلكوكس» مهندس الرى الانجليزى الذى كان قيما على ماء نيل مصر فى أولى سنوات الاحتلال ، وتسقط فى يده مجلة اسمها « الأزهر » فيكتب فيها داعيا الى العامية ، قائلا : **ان اللغة العربية الفصحى هى التى عاقت المصريين عن الاختراع .. !**

ولكن لم يحدثنا هؤلاء المتحمسون .. أى عامية يريدون .. أهي عامية شمال مصر أم جنوبها ، وكيف نفعل بتراثنا العربى .. هل نترجمه الى العامية · وما هى قواعدها وبلاغتها ..

ان واقع الأمر ان حسنى النية من هؤلاء الداعين للعامية..لم يفطنوا الى لب المشكلة كما قلنا ، وهو الأمية المتفشية فى مصر ، كما انهم لم يفطنوا الى أن العربية الفصحى ذاتها تتطور تطورا محسوسا ، بحيث أصبحت تصلح وسيلة للافهام ونقل المعارف المحدثة · وان الجهد الذى قد يبذل فى وضع قواعد للعامية كاف اذا وجه وجهته الصحيحة أن يجعل من العربية لغة عامة بين الناس ·

وشبيه بهذا الكلام الحديث عن كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وهى دعوة تبناها عبد العزيز فهمى فى أخريات أيامه ، ناسيا ان لكل لغة صعوباتها الناتجة عن اختلاف كتابة بعض الكلمات

عند نطقها ، ونستطيع أن نسرد فى الانجليزية عشرات الكلمات ، ويكفى شاهدا كلمة مثل « نايت » بمعنى ليل أو بمعنى فارس ، وكل الكلمات الأخرى ذات الأصل الجرمانى لا اللاتينى ٠

« التوفيق »

ورغم ذلك كله٠٠فاننا حين نرى صفحة الحياة الثقافية المصرية، بفكرها الفلسفى ، وبأدبها ومسرحها وفنها ، وننظر الى الجوانب الايجابية فى هذا كله ، نستطيع أن نقول ان المعجزة المصرية قد استطاعت أن توفق بين وراثاتها وحاضرها ، وأن تمزج بين تراثها وتأثرها ٠ وان ما يلزم لها أشد اللزوم هو مزيد من الخطوات الدائبة على الطريق الصحيح ٠

ان مسرحية جيدة بالعربية تتناول مشكلات الواقع المصرى ، أو قصيدة بالعربية تمس قلب القارىء فى كل مكان ، أو قطعة موسيقية يبدعها مصرى ، فتطوف الأرجاء ، أو عقلا مصريا يسامت بفكره فكر العالم ٠٠ كل تلك ردود عملية على السؤال :

كيف استطاعت مصر أن توفق بين الأصالة والمعاصرة ؟ بين الماضى ، وتأثيرات الحضارة الغربية ؟

وهى أيضا ردود عملية على كل من أرادوا السيطرة على العقل المصرى ، فأخذ العقل المصرى عنهم ومنهم ، ثم انطلق فى سبيله ٠

لقد شب العقل المصرى عن الطوق ، ولم يعد فى غرارة تلك الطفولة التى يتقبل فيها مستخذيا واهنا ، والأجيال الجديدة أن تتوقف لتتساءل : أهى غربية أم شرقية ، ولكنها ستعرف بالفطرة السليمة انها وحسب ٠٠ مصرية معاصرة ٠

كتابات صلاح عبد الصبور

شعر

● **الناس فى بلادى**
دار العودة ـ بيروت ـ الطبقة الخامسة ١٩٧٠

● **أقول لكم**
دار العودة ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٠

● **أحلام الفارس القديم**
دار العودة ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٠

● **تأملات فى زمن جريح**
دار العودة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧١

● **شجر الليل**
دار العالم العربى ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٧٢

مسرح شعرى

● **مأساة الحلاج**
دار العودة ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٧١

● **مسافر ليل**
فى مجلد واحد ـ الطبعة الثانية دار النهضة

● الأميرة تنتظر

دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٧٢

● ليلى والمجنون

دار العودة ـ الطبعة الثانية ١٩٧٠

نقد ودراسات

● أصوات العصر

الدار القومية بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٦٣

● ماذا يبقى منهم للتاريخ

دار الكاتب العربى بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٦٦

● حتى نقهر الموت

دار الطليعة ببيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٦٦

● قراءة جديدة لشعرنا القديم

دار الكاتب العربى بالقاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٦٨

● حياتى فى الشعر

دار الطليعة ببيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٦٩

● على محمود طه

دار الآداب ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٦٩

● وتبقى الكلمة

دار الآداب ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٠

● رحلة على الورق

مكتبة الانجلو ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٧١



صدر حتى الآن :

الكتاب القادم :

التليفزيون .. وحضارة الصورة

بقلم : عبد المنعم حسن

● **المراسلات :**

التحرير : ٢٦ شارع منصور بالقاهرة

تليفون ٢٢٧٢١ ــ ٣٢٥٠٢

الادارة : ١٣ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) ــ ص . ب ١٣٢٨

تليفون ٢٤١٤٥

الاعلانات : يتفق عليها مع ادارة المجلة

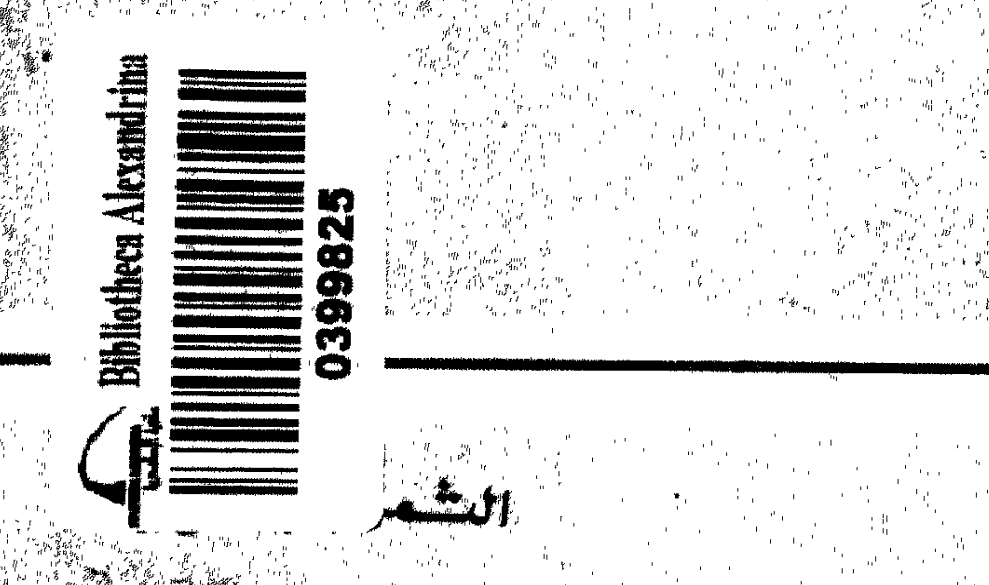
تليفون ٢٤١٤٥

هـــذا الكتـاب

قصة الضمير المصرى الحديث .. هى قصة الوعى الوطنى ، والادراك لحركة التاريخ ، والبعد بالمستقبل .. وهى أيضا قصة تيارات الثقافة العصرية الوافدة .. وهى اخيرا قصة الرجال الأذكياء الذين ساهموا فى صناعة العقل المصرى الحديث ، امثال رفاعة الطهطاوى ، وجمال الدين الافغانى ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده ، ولطفى السيد ، وطه حسين . وغيرهم .

هذه القصة يجلوها لنا بقلمه الرشيق ورؤيته الجديدة ، الشاعر الكاتب : صلاح عبد الصبور .

انها قصة ممتعة .. وتفاصيلها اكثر امتاعا ..



الشمر

To: www.al-mostafa.com